العدد: 55 (ينـــاير 2021)

الموكب الثقافي

مجلة ـ علمية نصف سنوية ـ تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم

اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم
CNECS

«إن للاستقلال معان كثيرة، وسياقات متعددة:
فهـو سياسـي، بالموقـف والقـرار، وثقـافي، بحفـظ الهويـة واللسـان، واقتصـادي، بالتطويـر والإنمـاء»

■ فخامة رئيس الجمهورية محمد ولد الشيخ الغزواني (الخميس 28 نوفمبر 2019)

سياحة في فضاءات الفكر والمجتمع والتراث

اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم
CNECS
www.cnecs.org
الموكب الثقافي
مجلة ـ علمية - نصف سنوية - تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم

المدير الناشر
أ. محمد ولد سيدي عبد الله

رئيس التحرير
د/ محمد ولد احظانا

لجنة القراء
أ.د/ محمد بن تتا
د/ محمدن بن أحمد بن المحبوبي
د/ الشيخ معاذ سيدي عبد الله

التدقيق اللغوي
الديماني محمد يحي
محمد الهيبة صهيب

العنوان:
هاتف: 45 25 48 03
البريد الإلكتروني:
Email : cnecsrim@gmail.com
ص.ب: B.P : 5115

تصميم وإخراج
الحضرامي أحمدو
Tel : +(222) 47 00 00 55
had.mac@gmail.com

سحب : مطبعة مزايا

في هذا العدد

4 **التراث الثقافي غير المادي**
الجيد ولد عبدي

6 **شنقيط مناط التسمية**
الأستاذ الدكتور إزيد بيه ولد محمد محمود

10 **«الهجرة والمجال»**
بقلم عثمان واقي أستاذ علم الاجتماع بجامعة نواكشوط العصرية

13 **المراكز الثقافية وإسهاماتها في تكوين الأجيال الموريتانية منذ الاستقلال وحتى اليوم**
مريم عباس

20 **السياحة الثقافية في موريتانيا.. المؤهلات وسبل الانطلاق**
إعداد: د سيدي أحمد ولد الأمير
باحث وإعلامي موريتاني

25 **كوكب المعجم التاريخي للغة العربية يشق مساره عبر سبعة عشر قرنا**
د. ببهاء بديوه

40 **أسلبة الخطاب والتعدد الموضوعاتي في رواية «هجرة الظلال»**
الدكتورة: انشراح سعدي

46 **الدبلوماسية الثقافية لدى الشناقطة محاولة لتتبع الأثر وتحديد دائرة الإشعاع**
بقلم: د/ محمدن بن أحمد بن المحبوبي

الموكب الثقافي
مجلة ـ علمية ـ نصف سنوية ـ تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم

قرّاءنا الكرام

سعينا، من خلال العدد الخامس والخمسين لمجلتكم « الموكب الثقافي»، إلى أن نعكس خصوصية المرحلة، وأن نصوّر ما تُحظى به التربية والثقافة والعلوم من عناية، وأن نعرّف على المكانة الفخمة التي حجزها "تعهداتي" للمهتمين بقضايا التربية وميادين الثقافة، وعمدنا، في سبيل ذلك، إلى استراتيجية توّفق بين احترام البعد الأكاديمي للمجلات المُحكّمة ذات الطابع العلمي، وما يقتضيه من شروط تضمن الدقة العلمية؛ وبين حاجتنا إلى إبراز ذلك الإشعاع الذي حملته ثقافتنا وألْقته بثباتٍ على مواضع مهمة من هذه الأرض وفي مراحل مختلفة، حتى طبع كل العيّنات التي يزخر بها تراثنا.

إن التنوع الثقافي الكبير الذي تتميز به بلادنا أثرى بصفة ملحوظة مختلف جوانب تراثنا الثقافي؛ لما اضطلع به من أدوار مشهودة شبعت مُختلف تلك الجوانب، وحمَلت الباحثين على تكثيف دراساتهم حول منظومة ثقافية وفكرية أصيلة، قبل أن يسيطر عليها الجانب العلمي وتكون صرحا يستقطب الدارسين، ويشد خريجوه الرحال إلى بقاع الدنيا حاملين المخرجات العلمية للمحظرة، وملامح الثقافة العالِمَة التي نشأوا تحت رعايتها وتكونوا بإشرافها؛ لنشرها بذات الآليات التربوية التي أهّلت سفراء شنقيط إلى تبوُؤ الوظائف ونيل الصفات والألقاب العلمية الطيبة التي أحرزوها في كل بقاع الدنيا كلما حطوا بها رحالهم أو جعلوها طريقا في أسفارهم العلمية.

لقد ارتأينا أن نقتفي أثر بعض هؤلاء العلماء الأجلاء، وأن نقدم محطات من إسهاماتهم، ونستجلي ملامح التنوع الثقافي الذي يجعل الرواية التراثية في هذا المنكب جديرة بالبحث، ومدعاة للتفكير في صناعة سياحة ثقافية.

ونظرا إلى حاجة المحتويات العلمية والبحثية إلى تصاميم وصور تهدي إلى المغازي وتعين على التقريب، فقد تم تحديث آليات السّحب والإخراج حتى تأخذ الموكب الثقافي مكانتها بين المجلات العلمية في العالم، وتكون دورية للاستزادة في عصر يفرض على أهله الأخذ بمقتضياته.

نرجو أن يملأ هذا العدد فراغا ويقدم جديدا لرواد العلم والثقافة، ويرضي القرّاء والباحثين، وأن يستنطق المهتمين بالكتابة ليقدموا مواضيع للنشر في الأعداد القادمة من الموكب الثقافي، خدمة للميدان العلمي والفضاء الثقافي، لما يستحقانه على روادهما من العناية والاهتمام.

■ أ. محمد سيدي عبد الله

الجيد ولد عبدي

التراث الثقافي غير المادي في موريتانيا ورهانات صونه

يمثل التراث الثقافي لكل أمة عنصرا أساسيا من هويتها، لما يحمل في مكونته المادية من شواهد على ماضيها؛ من خلال الآثار و المعالم وغيرها مما خلفت الأجيال الماضية و في مكونته غير المادية من دلالات على إنتاجها الثقافي عبر التاريخ.

والتراث الثقافي غير المادي هو « الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية... تعتبرها الجماعات والمجموعات وأحيانا الأفراد جزءا من تراثهم.

وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلا عن جيل تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها و هو ينمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها.....» (المادة 2 من اتفاقية اليونسكو لصون التراث الثقافي غير المادي - 2003).

وانطلاقا من هذا التعريف، توضح الاتفاقية أن التراث الثقافي غير المادي يتجلى بصفة خاصة في:

- التقاليد وأشكال التعبير الشفهي بما في ذلك اللغة كواسطة للتعبير عن التراث الثقافي غير المادي؛
- فنون وتقاليد أداء العروض؛
- الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات؛
- المعارف و الممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون؛
- المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية.

ومن هنا تبرز أهمية التراث الثقافي غير المادي بوصفه الشاهد على إبداعات جماعات و مجموعات و مجتمعات تميزها عن غيرها.

فهو باختصار أدب و فنون و طقوس وكافة التعابير الثقافية المختلفة لكل مجتمع التي يرى ذلك المجتمع أنها تمثل جزءا من تراثة و عنصرا من هويته.

و يثري التنوع الثقافي داخل كل مجتمع تراثه الثقافي غير المادي من خلال تعدد واختلاف عناصره.

ومن هنا فإنه من الضروري أن تعمل الدول على صون هذا التراث و الذي تهدده عوامل عديدة.

التهديدات التي تواجه التراث الثقافي غير المادي

التراث الثقافي غير المادي مهدد بالاندثار إذا لم تنجح البلدان ولا سيما منها تلك النامية في التصدي المناسب للتحديات التي تواجهه خاصة و أن طابعه غير المادي يؤكد هشاشته و ضرورة اتخاذ ما يلزم من صون و تثمين لضمان ديمومته ونقله إلى الأجيال القادمة.

إن التهديدات التي تواجه التراث الثقافي غير المادي تتمثل في:

- العولمة التي حولت المنتوج الثقافي إلى سلعة، مفروض - كباقي السلع - على التنافس من أجل البقاء وهذا يتطلب من البلدان الأقل نموا اتخاذ التدابير اللازمة لتفادي كارثة اندثار ثقافاتها و بالتالي فرض «نظام ثقافي جديد» أحادي يقوده العالم المصنع.
- عدم تكافؤ وسائل الاتصال الذي يحول البلدان النامية إلى مجرد مستهلك لثقافة الأقوى إعلاميا مع ما يقود إليه ذلك من مسخ ثقافاتها إن لم نقل محاولة نفيها (قصدا أو بدون قصد).
- تغيير نمط الحياة الناتج عن تحولات اجتماعية و اقتصادية مثل الهجرة من الريف إلى الحضر وما يرافق ذلك من تغيير في السلوك و العادات و التقاليد
- عدم التشبث الملحوظ بالقيم الأصيلة النبيلة للبلاد و ما يقود إليه من نزعة إلى اعتبار تعابيرنا الثقافية «متوحشة»
- التغييرات البيئية وما تحمله من تدهور يؤثر خاصة على الحرف التقليدية (الصناعة التقليدية و الصيد النهري) و حتى الزراعة و الطقوس المرتبطة بها في بعض المناطق.
- ارتباط بعض عناصر هذا التراث بمجموعات و أفراد إذا لم تقم بنقله إلى الأجيال القادمة فسيندثر.

لقد ذكرنا هذه العوامل مثالا لا حصرا؛ إذ يواجه التراث الثقافي غير المادي تحديات كثيرة أخرى تتطلب من السلطات العمومية اتخاذ إجراءات و تدابير تمكن من صونه و تثمينه، لنقله إلى الأجيال القادمة كما وصلنا من السلف.

تشخيص وضع التراث الثقافي في بلادنا

إن تراثنا الثقافي غني و متنوع لكنه مهدد نتيجة العوامل التي ذكرنا آنفا و ما ينتج عنها من فقد الصلة بين المواطن وتراثه.

فالموسيقى التقليدية البيظانية التي تمثل في إيقاعها انسجاما رائعا بين الفن العربي الأندلسي والفن الإفريقي تكاد تكون مهجورة و بالتالي معرضة للضياع بسبب تزايد إهمالها من طرف الفنانين التقليديين و الجمهور في آن واحد، و قد تعاني الموسيقى البولارية و الولفية والسونينكية من نفس الوضع، والصناعة التقليدية تأثرت بالتغييرات البيئية (أدوات الإنتاج) وبنمط العيش (المنتوجات).

و رغم هذا فلا تزال، بفضل الله جل، عناصر التراث الثقافي غير المادي الوطني موجودة مهما خفت ممارستها.

وقد بدا اهتمام السلطات العمومية بالتراث الثقافي غير المادي باكرا حيث تم تشجيعه من خلال تظاهرات ثقافية عديدة.

و قام المعهد الموريتاني للبحث العلمي بعيد نشأته بحملات تسجيل صوتي بكل اللغات الوطنية للتقاليد المروية بما فيها تلك المتعلقة بالتاريخ و جمع أكثر من 400 شريط حول مواضيع مختلفة تمت لاحقا كتابتها. و لكن العملية لم تستمر لفترة طويلة.

وفي تسعينيات القرن الماضي تم نشر سلسلة من الكتب من ثلاثة أجزاء تضم قصصا و أمثالا من تراثنا غير المادي.

وقام مشروع صيانة وتثمين التراث الثقافي الموريتاني الذي مول بقرض من

البنك الدولي بأنشطة تهدف إلى صون جوانب من التراث الثقافي غير المادي.
و في سنة 2008 قامت الوزارة المكلفة بالثقافة بوضع نظام الكنوز البشرية الحية في بلادنا و قدم رئيس الدولة حينها، بحضور المدير العام لليونسكو جوائز لمجموعة من الكنوز البشرية الحية.
وللتذكير فإن نظام الكنوز البشرية الحية اقترحته اليونسكو لتشجيع حملة مهارات متميزين وتحفيزهم من أجل أن يقوموا بنقل معارفهم و مهاراتهم إلى الأجيال القادمة لضمان ديمومة تلك المعارف و المهارات.
والحفل الذي نظم لتشجيع كنوزنا البشرية لم تتبعه أية إجراءات لخلق إطار ينقل من خلاله الكنوز مهاراتهم للشباب حتى وافى الأجل المحتوم معظمهم تغمدهم الله برحمته الواسعة
كما نشرت إدارة الثقافة كتيبات ذات صلة بالتعريف بالتراث الثقافي غير المادي و تثمينه (أدوات الموسيقى و غيرها).
كما تمثل المهرجانات المختلفة التي تنظم هنا و هناك وسيلة لتثمين و صون هذا التراث.
وتم تسجيل مكونة «اتهيدين» في قائمه التراث الثقافي غير المادي العالمي.
ونلاحظ أن كل هذه الأعمال لم تتسم باستمرارية تمكن من خلق ظروف و آليات كفيلة بصون هذا التراث.

الجوانب القانونية

لقد عملت بلادنا على و ضع ترسانة قانونية تمكن من حماية التراث الثقافي بصفة عامة و التراث الثقافي غير المادي بصفة خاصة.
يوفر القانون 024-2019 الصادر بتاريخ 14 مايو 2019 و الذي يلغي و يحل محل قانون الاطار 46-2005 الصادر بتاريخ 25 يوليو 2005 والمتعلق بحماية التراث الثقافي المحسوس، الحماية للتراث الثقافي غير المادي باعتباره مكونة من التراث الثقافي الوطني.
وينص القانون في مادته التاسعة على أن التراث الثقافي غير المادي يشمل « الممارسات و التصورات و أشكال التعبير و المعارف و المهارات التي تعتبرها الجماعات و المجموعات والأفراد جزءا من تراثهم. و كذلك ما يرتبط بها من أدوات و قطع و مصنوعات و أماكن ثقافية»
وبموجب هذا القانون لا يجوز التصرف في أي ممتلك ثقافي مادي أو غير مادي إلا من خلال مسطرة تضمن بقاءه و صونه.
كما وضع القانون آليات لصونه من خلال وجوب إدراجه في سجل الجرد الوطني للتراث وإمكانية تصنيفه.
وينشئ القانون مجلسا وطنيا للتراث مكلفا بالمشورة في كل المواضيع المرتبطة بالتراث الثقافي المادي و غير المادي.
كما يحمي قانون حقوق المؤلف عناصر من التراث الثقافي غير المادي بوصفها ملك عام لا يجوز التصرف فيه إلا بترخيص من الوزير المكلف بالثقافة.

على المستوى المؤسسي

إن وجود محافظة وطنية للتراث الثقافي قد يمكن من تنسيق الأعمال الرامية إلى صون و تثمين هذا التراث.
ومهما كانت الترسانة القانونية كاملة فأن صون التراث الثقافي غير المادي يتطلب بالإضافة إليها القيام بأعمال عديدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:
- جرد كامل لعناصر التراث الثقافي غير المادي
- إدراج مواد تربوية متعلقة بالتراث الثقافي في البرامج التعليمية يتعرف الشباب من خلالها على تراثهم الثقافي
- إعداد و تنفيذ استراتيجية لصون و تثمين التراث الثقافي غير المادي

وصادقت بلادنا سنة 2006على اتفاقية 2003 المتعلقة بصون التراث الثقافي غير التي أعدتها اليونسكو و التي تلزم البلدان الأطراف باتخاذ الإجراءات و التدابير الضرورية لصون و تثمين التراث الثقافي غير المادي.
كما صادقت بلادنا كذلك على اتفاقية 2005 المتعلقة بالتنوع الثقافي.
والتنوع الثقافي يتجلى أساسا في التعابير الثقافية التي تدخل بطبيعتها في مجال التراث الثقافي غير المادي، و تمثل المصادقة على هذه الاتفاقية حماية أخرى للتراث الثقافي غير المادي.

- التحسيس بشتى الوسائل بالتراث الثقافي غير المادي و أهميته
- إنشاء فضاءات لممارسة بعض عناصر التراث غير المادي
- خلق صناعات ثقافية تمكن من صون و تثمين التراث الثقافي (دور تسجيل مسموع و مرئي و نشر
- تأهيل عناصر قادرة على نقل هذا التراث إلى أجيال المستقبل.

و أخيرا نذكر بأن التراث الثقافي غير المادي جزء من الهوية إذا ضاع لا يمكن تعويضه و يجب على كل من موقعه العمل على صونه و تثمينه.

الأستاذ الدكتور إزيد بيه ولد محمد محمود

شنقيط مناط التسمية

إن الشناقطة، هنا، ينمون إلى بلاد شنقيط وليست هذه التسمية في الواقع لهذه البلاد، من اختيار أهل البلد، ولم يكن لهم في نشأتها أي دخل، وإنما وردت إليهم هكذا، بلاد شنقيط من المشرق، والظاهر أن ذلك بعد الصدى الطيب والذكر المحمود الذي تركه الحجاج القادمون من البلاد، أولئك الذين كانوا ينطلقون في رحلة حجهم من شنقيط[1] . والحق أن أقدم نص عثرنا عليه يذكر هذه البلاد بهذا الاسم إنما كان لسيدي عبد الله التنواجيوي «... وسأل الشيخ العالم العلامة حامل راية الفقه في البلاد التكرورية على الإطلاق الحاج القاضي عبد الله بن محمد (المتوفى 1103 هـ)، الشنجيطي عالم مراكش وقاضيها، سيدي عيسى السكتاني (المتوفى 1066 هـ)، ونص السؤال: «إن البلاد الشنجيطية وما حولها، إذا كانوا يتلون القرآن يبدلون الضاد حيث جاء في القرآن بلام مغلظة[2] ».

ثم عند سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم: «... وكان الركب يمشي من شنجيط كل عام، ويحج معهم من أراد الحج من سائر الآفاق، حتى إن أهل هذه البلاد، أعني من الساقية الحمراء إلى السودان إلى أروان عند أهل المشرق إلى الآن بالشناجطة[3] .

ولا يبتعد الشيخ سيدي بابه عن هذا السياق فيقول «... ويعرف أهل هذا القطر الصحراوي في أرض المشرق، وفي الغرب بالشناقطة، إما لأنهم كانوا من أكثر هذه البلاد حجا، فصاروا أعرف في تلك البلاد، وإما لأن شنقيط من أقدم القرى في هذه البلاد[4] ».

ولكن الحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره أن أهل البلاد باركوها، وإن كانت من إبداع غيرهم، بل إنهم اعتبروها محمدة وعنوان مجد وشهرة تليدة، وذكرا أثيلا، فهي سمة النهوض الفكري والأدبي الذي عرفته البلاد خلال القرن الثالث عشر[5] ».

لقد جاءت شهرة شنقيط كما جلى النص السابق من كونها منطلقا لقافلة الحج، القادمة من هذه البلاد، ولكن أكثر من ذلك فإن القافلة إياها، بها رجال عظام، وعلماء عرفوا بحفظهم للمتون عن ظهر قلب، كما عرفوا بحفظ القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، واللغة العربية وآدابها والمنطق، وحفظهم يفوق الوصف فقد أدهش علماء الأقطار العربية التي مر بها الشناقطة وقدرتهم الفائقة على الاستظهار وقوة الذاكرة، فخلدوا اسم المدينة – البلد أينما حلوا وارتحلوا وأصبحت عندها النسبة (شنقيط) التي تنتهي بها أسماء الأعلام الذين رحلوا إلى المشرق برسم الحج مرادفة للعلم والمعرفة والحُجَّة في الرأي، والورع والتمسك بهدي السنة، ودونت أسماؤهم في معاجم العلماء وملأت مؤلفاتهم فراغا في رفوف مكتبات المشرق ولهجت بذكرهم ألسنة على قدر كبير من الشهرة وذيوع الذكر وعلو الشأو في العلم والمعرفة[6] ، فصاروا عنوان مجد يعلو مفرق هذه البلاد، وأضحى اسم شنقيط جوهرة متألقة في جبينها.

ومن المفارقات التاريخية أن اسم شنقيط الذي عرفت به البلاد هو آخر الأسماء التي أطلقت عليها، دون إغفال الاسم الذي طغى عليها وتعرف به اليوم – موريتانيا – وهو اسم كما يعلم المختصون «تدبير» من كبولاني المغتال سنة 1905م، إذ رمى من خلاله ومن وراء إطلاقه إلى دحر نهضة سكان البلاد الفكرية وقطع آصرتهم مع أبناء عمومتهم وبنى جلدتهم في المغرب والمشرق وذلك ببعث هذا الاسم من مرقده الروماني.

1 كانت شنقيط تكتب في الوثائق القديمة بالجيم وأهل البلد ينطقونها شنكيط، وتكتب بالقاف والجيم، وقد كتبها صاحب القاموس شنكيت، ولكن اسم المدينة استقر على النحو الذي كتب في المتن، وجاءت كما اتفق موافقة للسجع في عنوان كتاب أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، انظر إمارتا إدوعيش ومشظوف تأليف الشيخ سيدي بابه بن الشيخ سيدي دراسة وتحقيق د. إزيد بيه بن محمد محمود، المطبعة الوطنية، 1992 ص 184.

2 سيدي عبد الله التنواجيوي، تبيين مخرج الجيم، مخطوطة تحت رقم: 5481 (2886-281)، المكتبة الوطنية، باريس، بجوزة الاستاذ دوود بن عبد الله نسخة منه.
وسيدي عبد الله التنواجيوي، بن أبي بكر التنواجيوي متوفى 1145 هـ، من أهل العلم، مختص في القراءات «وجد الناس يلحنون في القراءات يصحفون في الحروف، فأزال اللحن والتصحيف عنهم ولاسيما في مسألة الجيم المشهورة انظر البرتلي، فتح الشكور، ص 208.ww

3 سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم، «صحيحة النقل في علوية إدوعلي وبكرية محمد قلي» مخطوط، محفوظ تحت الرقم: 3406 المعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص 6. وذكر أن معنى شنقيط عيون الخليل، صحيحة النقل، ص5.

4 الشيخ سيدي بابه – مصدر سبق ذكره ص 189.

5 د/ أحمد بن حسن، الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر هجري أطروحة دولة، الجامعة التونسية 1986.

6 «... كان ألئك الطلاب ستحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث، سندا ومتنا عن ظهر قلب (...) وكانوا يضربونه مثلا لحدة المغاربة وكانوا يذكرون إقامته في المدينة المنورة ورحلته إلى القسطنطينية وزيارته للأندلس وربما تناشدوا شعره في بعض ذلك وكانوا يذكرون له مكتبة غنية بالمخطوطات والمطبوع في مصر وأوروبا، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئا أو ناسخا». طه ح2، ص 154.

الموكب الثقافي
مجلة ـ علمية
نصف سنوية ـ تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم
CNECS

وإذا كانت هذه البلاد قد عرفت بتسميات متعددة كصحراء صنهاجة وبلاد التكرور وبلاد لمتونه والبلاد البظانية وبلاد المغافرة والمفازة الكبرى والمنكب البرزخي والبلاد السائبة وبلاد الفترة وبلاد السودان وصحراء الملثمين، فإن أحرى التسميات بالاعتماد هي بلاد شنقيط هي أنظفها من الشحنات العاطفية وأنقاها من الشبهات السياسية والاديولوجية وفوق هذا وذاك فهي أكثر التسميات ذيوعا عند حملة القلم وأكثرها شيوعا عند العموم، فلا جرم، والحال على ما جلونا أن تتوسط التسمية عناوين البحث التي تعنى بتاريخ وأدب القوم، ونحن في مسلكنا هذا لا نبتدع في هذا المنحى ما ليس منه، وإنما سلكنا طريق من سبقنا.

يمتاز ساكنة هذه البلاد بصفات فارقة، فارقة تميزهم عن جيرانهم وعن بني جلدتهم، بل تميزهم عن بقية شعوب العالم، وقد عرفوا بها، واستمروا متصفين بها، وما زالت حاضرة بادية للعيان فيهم حتى يوم الناس هذا.

إنهم بداة، فقد عرفوا بأنهم يرتادون على ظهور العيس مظان العشب والماء ...، يشيمون الأنواء حتى قيل إنهم (أولاد المزن) كما هو متداول عندهم في الحسانية، ورغم أن لهم حواضر ذات طابع تجاري باعتبارها واقعة على طرق ومسالك القوافل التجارية، وهي أشهر من أن تشهر ... (تنيكي – ولاته – وتشيت – وشنقيط – وودان).

غير أن باديتهم هذه امتازت بصفة قل أن نجد لها نظيرا، إنها بداوة عالمة إن جاز مثل هذا التعبير، فرغم أن جزيرة العرب عرفت عمق بواديها الفصاحة والشعر، لكنها لم تعرف ازدهارا علميا على شاكلة ما عرفته في بلاد شنقيط «فقد كانت البادية مركز عطاء ثقافي موصول. تلك – لا ريب – ميزة فارقة من ميزات المجتمع العربي، وهي للمجتمع العربي، وهي للمجتمع الشنقيطي أميز، وفيه أبين، فما كان العلم حيث كان إلا ربيب الحضارة، ولقد كانت البادية العربية مرجعا في الفصاحة وموئلا للشعراء والرواة، أما العلماء وحلقات العلم ومجالس الدرس فكانت للمدينة دون البادية[7] ».

أما العلامة تاج علماء شنقيط كما يحلو لأحمد بن محمد الأمين في الوسيط نعته، المختار بن بونه فقد بين هذه الصفة الفارقة في قصيدته المشهورة، وقد اعتمدت أبياته هذه باعتبارها تاجا لماعا يعلو مفارق الشناقطة، بل وجعلوها في مدخل وزارة الثقافة ليقرأها من يلج عالم موروث شنقيط الثر الذي يضم هذا المتحف جزءا منه:

جبنا الفيافي عليها نحوهم وبها
نحو البلاد التي نهوى وتحوينا
ونحن ركب من الأشراف منتظم
أجل ذا العصر قدرا دون أدنانا
قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة
بها نبين دين الله تبيانا
نتلو كتاب إله العرش كل مسا
وكل يوم فمن نلقى توقانا [8]

أما الميزة الثانية فهي وحدة الديانة، فقد حبا الله ساكنة هذه البلاد بأن من عليهم بالإسلام دون استثناء فلم نسمع حتى من الرحالة الأجانب الذين مسحوا هذه البلاد، وبحثوا عن مواطن الضعف فيها، أن فيها أي خارج عن الإسلام، وهذه الميزة كما ترون معي ميزة فارقة أيضا، وقد عضدتها ميزة أخرى، وهي وحدة المذهب. إن ساكنة هذه البلاد على مذهب إمام دار الهجرة وعالم المدينة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه «فلم تعرف هذه البلاد فيما بعد قيام دولة المرابطين، باستثناء حالات شاذة، مذهبا غير مذهب مالك، وهي الحقبة التي بدأ الكتاب والمؤرخون يتحدثون فيها عن هذه البلاد بشكل واضح، أما فيما قبل ذلك فقد انتشرت مذاهب مختلفة بعضها عقدي وبعضها فقهي كالخارجية، والرافضية والشيعة الموسوية[9] ».

ومن المعلوم أن نقاء إسلام القوم وصفاءه جعل اهتمامهم بالعلم متأتيا من اهتمام الإسلام به، تمجيدا لأهله وترغيبا فيه، وتعظيما لقدره، وتنويها بأهله، وحثا على طلبه وتعلمه وتعليمه، وبيانا لآدابه وتوضيحا لآثاره، وترهيبا من القعود عنه، أو الازورار عن أصحابه، أو المخالفة لهديه، أو الازدراء بأهله[10] ..».

واهتمامهم بالعلم هذا أفضى إلى الاهتمام بأوكد الوسائل المفضية إليه ويتسنمها الكتاب.

«فالكتاب هو الذي يؤدي إلى الناس كتب الدين وحساب الدواوين (..) إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك،

7 الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط / تونس 1987، ص108.
8 معهد الحق لنشر مؤلفات المختار بن بونه، قصيدة الأبل، مرقونة، بحوزة الأستاذ إصحو بن بلعمش.
9 محمدن بن سيدي محمد بن حمين، التاريخ القضائي وكبريات النزاعات القضائية في موريتانيا، الإفريقية للطباعة والنشر، د.ت. ص75.
10 د/ يوسف القرضاوي، الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة 1417 هـ - 1997م ط7 ص3.

وبسط لسانك وجود بنانك وفخم ألفاظك وبجح نفسك وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك[11] «، وقد قال المهلب لبنيه، يابني، لا تقوموا في الأسواق إلا على زرّاد أو ورّاق.

وكان محمد أحبيب بن مايابي قد عدد فوائد الكتاب على طريقته فقال:

لقد ضاق الزمان علي حتى
أنست بوحدتي وبغلق بابي
وأتبعني الأنام فلا أمين
به يثق اللبيب سوى الكتاب
لذا كنت الجدير بجمع كتب
بها نلت السرور مع احتجابي
فإن فقد النديم فلي نديم
أمين لا يخون وذا كتابي
كتابي قد جمعت به الدراري
وأتعبت القريحة في شبابي
منادمة الكتاب لدي أولى
لمن رام السلامة في اغتراب
فطورا في المعارف والترقي
إلى فهم الحقيقة والكتاب
وطورا في النوادر والأمالي
وفي ذكرى بثينة والرباب [12]

بينما يرى الجاحظ، وهو سيد الكتاب العرب دون منازع، أنه يعلم أنه: «لا يعلم جارا أبر ولا رفيقا أطوع، ولا معلما أخضع، ولا صاحبا أظهر كفاية ولا أقل جناية ولا أقل إملالا ولا أحفل أخلاقا، من الكتاب، وأنه لا يعلم أحسن موافاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر معونة، ولا أخفر مؤونة ولا شجرة أطول عمرا ولا أجمع أمرا، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكا من الكتاب، وأنه يعلم نتاجا في حداثة سنة، وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القوية والتجارب الحكيمة، ومن الإخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتنازحة، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، أكثر مما يجمع لك الكتاب [13]«.وكان أبو الطيب المتنبي يرى أنه:

أعز مكان في الدنا سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

وكان محمد حبيب الله بن مايابي قد نبه إلى أن اقتناء الكتاب من أوكد أسباب الغنى بتجربته.

واعتبارا لهذه المنزلة السامقة للكتاب فإنه تسنم في أذهان الشناقطة كل الاهتمامات العلمية بذلا للمال فيه والمهج (حيث لم يحل بينهم وإياه بعد الشقة ولا أهوال الطريق عن ارتياد مظانه) في سبيل اقتنائه، وبذل الجهد في سبيل استنساخه، والمهارة في سبيل حفظه والعناية به (حيث إن تسفيره وتجليده وحفظه، من الفنون الموروثة إرثا يعتز به الأحفاد قبل الأجداد) وضنا به عن الإعارة، والعض بالنواجذ عليه، فرقوه لأحد مشاهير هذه البلاد وهو الشيخ سيدى بابه بن الشيخ سيدى لم ير أثمن من هدية كتاب، وعلل ذلك بالبيت المشهور:

ومن جل عن كل المراتب قدره
فأفضل ما يهدى إليه كتاب

وقد بلغت هذه الرسالة في نفسي مبلغا حفزني أن جعلتها واجهة أطروحة دكتوراه دولة أعددتها في التاريخ عن الزوايا في بلاد شنقيط في مواجهة الاستعمار الفرنسي، وقد لاقت هذه الوثيقة قبولا حسنا في أوساط المؤرخين والمهتمين بشأن الكتاب على حد سواء [14]... وكان جده وسميه الشيخ سيدي الكبير قد ذهب إلى مراكش لاستجلاب الكتب «فإذا أراد أن يقضي الثمن يسلم إلى البائع ما بقي من المحاسبة بالغا ما بلغ[15] «، اغتباطا بظفره ببغيته.

إن تشبث أهل هذه الأرض بالكتاب يمتد إلى ما بعد رحيل صاحبه إلى الدار الآخرة

إلى درجة المحبوب، بل وسواد القلب، كل ذلك يتوخى المهمة الأصيلة منه وهي تمثل ما بين دفتيه.

أوجه الاهتمام:

يتراءى لي في هذا المضمار أن أجل أوجه اهتمام الشناقطة بالكتاب نجده عند أبرز مشايخهم العلامة محمد محمود ولد التلاميد الذي لم يقتصر على جلب الكتب لبلاده ولا إحياء المطمور (يحضرني هنا جهده في القاموس، فالنسخة المعتمدة منه في مكتبات العالم هي الممهورة باسمه ...)بل تعدى جهده في استجلاب الكتب والمخطوطات إلى أرقى مظانها في أوروبا حيث آب بها إلى تركيا ومن ثم إلى الحواضر العربية المشهورة، ولما أراد أن يرسل أسنى الهدايا وأثمن العطايا

ومن أطرف أوجه اهتمام الشناقطة بالكتب القصة المشهورة التي تروى عن العلامة سيد عبد الله ولد الحاج إبراهيم مع أمير مصر علي باشا حين أكرمه، وكان من جملة ما أتحفه به فرس من عتاق خيل مصر المعروفات بالكحيلات، فسئل عنها فقال جعلتها حطابا» ويعني أنه اشترى بها كتاب مواهب الجليل بشرح مختصر خليل للحطاب.

وهذا الثمن الباهظ يحيل إلى أمرين:

أولهما سموق مكانة الكتاب عند الشناقطة وولعهم باقتنائه.

والثاني يصدق رأي بعض الرحالة في غلاء ثمن المخطوطات في بلاد شنقيط أيام دخول الفرنسيين، لهذه البلاد، حيث ذكرت بعض التقارير أن معدل سعر المخطوطات في جنوب شنقيط من

11 أبو عثمان عمر بن بحر، الجاحظ كتاب الحيوان 8 أجزاء دار الجيل بيروت 1992 ج1 ص 50 – 51.
12 محمد حبيب الله بن مايابا، زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم 4 أجزاء، دار الفكر 1401 هـ ج1 ص 376.
13 محمد حبيب الله بن مايابا، زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم 4 أجزاء، دار الفكر 1401 هـ ج1 ص 376.
14 طبعت هذه الأطروحة مرتين، الأولى 2001 والثانية 2003م المطبعة الوطنية نواكشوط.
15 أحمد بن الأمين، الوسيط، مكتبة الخانجي، مكتبة منير 1989 ص 241. ويذكر الخليل بن النحو، في كتابه، بلاد شنقيط، المنارة والرباط، أن الشيخ سيدي الكبير لما عاد من رحلته إياها هناه بابه بن أحمد بيبه بخمتيه فقال:

أضاءت بلاد الغرب لما أتيتها وأصبح يبكي عند ترحالك الغرب
وجئت بكتب يعجز العيس حملها وعندك علم لا تحيط به الكتب

الخليل النحوي، مرجع سابق، ص 151.

3 إلى 4 جمال[16] .

وكان العلامة محمد يحي بن محمد المختار المعروف بمحمد يحي الولاتي، وهو من أبرز الرحالة الشناقطة ورحلته مطبوعة كان قد عاد بخزانة كتب ضخمة إثر عودته من الشرق وبلاد الحرمين عمت شهرة هذه الخزانة مناكب هذه البلاد، كما كانت كعبة لطلاب العلم في المناطق الشرقية من البلاد[17].

وهذا سيدي ولد أحمد بابه الذي مر بمصر في القرن 13 هـ فكلفه الأمير بالإقامة يستنسخ الكتب لديه، فمكث ست سنوات، ويقال: إنه زوده عند سفره بثلاثين جملا موقورة، قد لا تخلو أحمالها من ذخائر المخطوطات[18] .

وفي مجال مدح الكتاب والحث على العناية به يعتبر الشيخ محمد الأمين محمد المختار (آبه بن اخطور) أن الكتب هي الشغل الشاغل لمن هتك أستار مستغلقات العلوم حيث قال:

ولي شغل بأبكار عذارى
كأن وجوهها ضوء الصباح
أراها في المهارق لابسات
براقع من معانيها الصحاح
أبيت مفكرا فيها فتضحى
لفهم الفدم خافضة الجناح
أبحت حريمها جبرا عليها
وما كان الحريم بمستباح[19]

وقد بلغ اهتمام الشناقطة بالكتاب درجة أن امحمد ولد محمد المختار المعروف بامحمد بن الطلبه «كان إذا سافر ونزل بحي من الزوايا، أول ما سأل عنه القاموس، فإذا كان موجودا عندهم طلب منهم الاتيان به، لينظر إليه يومه، فإن لم يكن موجودا فيهم ارتحل عنهم، ولا يترك يومه ضائعا[20] ».

وقد تفنن الشناقطة في اقتناء الكتب حتى إنهم اقتنوا مكاتب متخصصة في الموضوع الواحد، على شاكلة جهد أحمد بن امين الذي يذكر صاحب الوسيط أنه جمع مكتبة متخصصة في العروض، وأنه لا علم له بأحد صنع صنيعه، فقد قال إنه عالم مشارك في فنون النحو والفقه والبيان، وله معرفة بالعروض عظيمة ما أظن أحدا في هذا العصر يبلغها، ولا جمع أحد من كتبه (العروض) ما اجتمع عنده[21] ».

ومن أوجه اهتمامهم بالكتب كذلك، الضن بها، والحرص على عدم إعارتها، ولهم في ذلك أدبيات وإخوانيات مشهورة، فمثلا امحمد ولد الطلبه طلب من حرمه بن عبد الجليل إعارة كتاب تبصرة الحكام في أصول الأقضية وأصول الأقضية والأحكام لابن فرحون، فأعاره إياه على الرغم من شدة تعلقه به، وحرصه على استصحابه كسائر العلماء في عهده، فقال حرمه:

يا ابن المشايخ والأشياخ أسلافه
جزاء من يسعف العافين إسعافه
لكن تبصرة الحكام مبخلة
ولؤلؤ وسواد القلب أصدافه
ومن أعار سواد القلب أتلفه
لكن يهون علينا فيك إتلافه

فأجابه بن الطلبه شاكرا الإعارة:

لله درك من بحر ودرك من
در يكون سواد القلب أصدافه
أتحفتنا منك نيلا عز مطلبه
أتحفت ما أمل المأمول إتحافه[22]

وهم في الإيلاء عن الإعارة يرددون:

ومحبوبي من الدنيا كتاب
وهل أبصرت محبوبا يعار

ولما أراد المختار بن بونه نظم التسهيل في النحو ولم يجد شرحا يستعين به، فذكر له الدامينى عند محمد بن ببانا فقصده وقال:

أتيتكم يا قضاة العلم والدين
وليس لي غرض سوى الدامينى
عن كل حب به قد كنت ذا كلف
وكاد زائدة قد كاد يسلبني
كأنكم وهي للتحقيق ترتفعوا
على ظنون فؤاد ذات تحسيني

فأعطاه إياه إثر هذه الأبيات[23]

وهذا الشيخ سيديا الكبير يكتب في نهاية كتابه جنة المريد ما لفظه «ليعلم الواقف عليه أني أعرت كتابي هذا جنة المريد لأخي في الله وفي التربية وخليلي وصديقي وحبيبي محمد بن علي بن معلوم، ولو كنت أملكه لأحد لملكته إياه والسلام» ولعله هو الذي عناه بهذه الأبيات:

يا مستعيرا من يدي جنتي
دون مريد الإنس والجنة
حيهلا بها فإني على
رسم جهاده إلى الجنة
فلا تدعني لا عدمت الوفا
أزحف للعدى بلا جنة[24]

ومن الناحية المادية فقد اعتنى الشناقطة بكتبهم وحافظوا عليها، رغم قسوة بيئتهم، فعوامل الرياح والمطر، والدواب التي تلتهم ما وقع عليه نظرها، كلها عوامل تجعل المحافظة على الكتاب صعبة، لذلك كانوا يحفظونها في أوعية من جلد، وكانوا يجلدونها، ولهم في ذلك دربة ومران، عز لها نظير وكان الماء أخشى ما يخشون على الكتب، ولهم في ذلك أفانين طريفة.

وليس بدعا أن يذهب الإمام الشافعي مذهبا مغايرا لمذهب الشناقطة الموالك في اهتمامهم بالكتب واعتمادهم عليها حين أعطى الأولية للحافظة وجعل الكتاب في المرتبة الثانية وكنى عنه ببطن الصندوق حيث قال:

علمي مَعي حَيثما يَمَّمتُ يَنفَعُني
قلبي وِعاءٌ لَهُ لا بَطنُ صُندوقِ
إن كُنتُ في البَيتِ كانَ العِلمُ فيهِ مَعي
أو كُنتُ في السوقِ كانَ العِلمُ في السوقِ

ونختم القول باهتمام الشناقطة بالكتاب إن علاقة الكتاب بصاحبه تمتد حتى إلى ما بعد رحيل صاحبه إلى الدار الأخرى فهذا ابن تلاميذ في رثائه لنفسه يرى أن أول الباكين عليه سوف تكون كتبه».

تذكرت من يبكي علي فلم أجد
سوى كتب تختان بعدي أو علمي

16 الخليل النحوي، مرجع سابق، ص 151.
17 حمادي بن المرتجي، الشعر في ولاته في القرن 14 هـ ، مذكرة نهاية الدرس، المدرسة العليا للتعليم، 1983 – 1984م ص 37 – 38.
18 الخليل النحوي، مرجع سابق، ص 274.
19 محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ثمانية أجزاء، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ط 1417 هـ 1996م ج1 ص 13 – 14.
20 محمد ولد الطلبه اليعقوبي، الديوان، تحقيق محمد عبد الله بن شبيه بم أبوه، د.ت ص 16.
21 الوسيط – مرجع سابق ص 347.
22 الوسيط – مرجع سابق ص 25 وابن الطلبه، ص 17.
23 الوسيط – مرجع سابق ص 281.
24 هارون بن الشيخ سيدي، كتاب الأخبار – المطبعة السريعة، د.ت. ج1 ص 134.

بقلم عثمان واقي أستاذ علم الاجتماع
بجامعة نواكشوط العصرية

«الهجرة والمجال»

العلوم الاجتماعية في مواجهة التحولات والتحديات الاجتماعية في موريتانيا

يعد إنشاء الوكالة الوطنية للبحث العلمي والابتكار في العام 2020، أحد أهم التطورات، التي تهدف إلى إعطاء العلوم الانسانية والاجتماعية مكانة بارزة من بين العلوم الأخرى.

ولعل من نافلة القول التذكير بأن العلوم الاجتماعية ظلت تعاني منذ الاستقلال (سنة 1960)، وحتى وقت قريب من إهمال بين وصعوبات جمة وتحديات عديدة، غير أن هذه العلوم شهدت قفزة نوعية وكمية، إلى حد ما، خلال الإحدى عشرة سنة الأخيرة؛ فمع مستهل هذه الفترة (2009) التي تزامنت مع فجر الثورات العربية، بدأت هذه العلوم وخصوصا علم الاجتماع والأنتروبولوجيا والأتنولوجيا تحتل مكانة علمية وأكاديمية بل وإعلامية نظرا لقدرات المختصين ومهاراتهم في تنوير الرأي العام وتفسير وتحليل الظواهر الاجتماعية والتغيرات على كل المستويات وفي كل الطبقات الاجتماعية وفي جميع الميادين.

لكن بعض الأسئلة لا تزال تطرح نفسها في ظل التوجهات الجديدة للعلوم الاجتماعية؛ فما هو الدور الحقيقي الحالي للعلوم الاجتماعية؟ وما هي الوضعية الحقيقية لهذه العلوم من الناحية الأكاديمية والبحث العلمي؟ هل حققت النتائج المرجوة منها؟ وما هي آفاقها المستقبلية؟

I ــ العلوم الاجتماعية منذ الاستقلال

منذ الاستقلال تولدت لدى النخبة العلمية وخاصة الباحثين في علم الاجتماع رغبة واسعة في مجال البحث في العلوم الاجتماعية وخصوصا في ميدان التاريخ والمجتمع والاقتصاد والسياسة والقانون والجغرافيا الخ .... واستمر هذا التوجه خلال خمسة عقود إلى فجر الثورات العربية ويمكن القول بأن وضعية العلوم الاجتماعية خلال النصف الأخير من القرن العشرين والعقد الأولى من هذا القرن تعتبر غير ملائمة لعدة أسباب نذكر منها، على وجه الخصوص، النقص في تنظيم وتأطير البحث والباحثين في العلوم الاجتماعية وعدم توجهم إلى القطاعات التنموية ذات العلاقة بالإبداع والتجديد وقضايا المجتمع.

أ ــ مناهج جمع المعطيات

للوصول إلى المعطيات، اعتمدنا على حصيلة تحليل لمضمون عدة وثائق علمية متخصصة تتكون من منشورات متعددة من كل ميادين العلوم الاجتماعية، وإلى جانب هذه النتائج قمنا بجمع بعض المعطيات الكمية اعتمادا على مقالات حول وضعية البحث الجامعي في العلوم الاجتماعية وفي نفس السياق اعتمدنا كذلك على الخطة الاستراتيجية بجامعة نواكشوط العصرية والخطة الاستراتيجية لكلية الآداب والعلوم الإنسانية، إضافة إلى مقابلات مع رؤساء مراكز البحث.

ب ــ فترة تهميش العلوم الاجتماعية:

خلال عقدين كاملين ظلت العلوم الاجتماعية في وضعية تهميش وبالتحديد منذ استقلال موريتانيا في العام 1960 إلى العام 1980، حيث أن الانتاج العلمي كان هزيلا، نظرا لتهميش المختصين في هذا الميدان، تهميش يعود في الأساس إلى عدم فهم دور علماء الاجتماع في تنوير المجتمع وتحسيس أفراده حول قضايا المجتمع والسياسات الاجتماعية والاقتصادية للبلاد الموريتانية.

ضف إلى ذلك الحالة العامة للمجتمع خلال هذين العقدين؛ حيث نسبة التمدرس متدنية جدا والأمية منتشرة في شتى الشرائح، كما أن الطبقة المثقفة لم تكن ترى دورا لهؤلاء العلماء في تفسير وتحليل المشكلات الاجتماعية وتنوير الرأي العام.

د ــ تأسيس جامعة نواكشوط كحل مؤقت [1]

تأسيس جامعة نواكشوط العصرية لم يكن إلا حلا مؤقتا لبحث أو لإيجاد مكانة علمية أو أكاديمية للعلوم الاجتماعية في هذه المؤسسة التي يعود عمرها إلى ثلاثة عقود، لكن رغم ذلك فقد شاهدنا في هذه المؤسسة إنتاجا ثريا في العلوم الاجتماعية هذا الإنتاج العلمي شمل البحوث الطلابية في أواخر مراحل التدريس (ليسانس والماستير) في الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا وعلوم اللغة والآداب.

لكن من جهة أخرى، وخارجا عن نطاق التدريس والبحث العلمي في المؤسسات، لم تكن هنالك إرادة سياسية واضحة تمنح للعلوم الاجتماعية تقدما أو مكانة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية وفي تحسيس وتنوير الرأي العام حول قضايا الساعة وقد ظلت وضعية العلوم الاجتماعية على هذا الحال إلى فجر الثورات العربية في 2009 .

II ــ مرحلة جديدة ومنعرج تاريخي :

من سنة 2009 بدأت الأفكار المسبقة وعدم الاهتمام بهذه العلوم لدى الشعب والسلطات العمومية تتراجع خطوة بعد خطوة ومن ناحية أخرى، بدأت النخب السياسية والثقافية تفهم دور علماء الاجتماع في تنوير الشعب والتحليل الدقيق لبعض القضايا والظواهر

1. رغم تهميش العلوم الاجتماعية كما ذكرناه آنفا فإن تأسيس جامعة نواكشوط في 1981 جاء لتقويم التدريس في العلوم الاجتماعية والبحث العلمي

والمشكلات الاجتماعية، ومن ناحية أخرى شهدت الساحة الجامعية تطورا كبيرا من حيث تنوع الشعب وتعددها. كما دخلت المؤسسة الجامعية مع بداية هذه الفترة، في مرحلة جديدة وأنشأت شعبا جديدة متخصصة في نظام LMD نذكر منها علم الاجتماع والتنمية المستدامة وبعض الشعب المهنية في الاختصاصات الاقتصادية والعلوم الإنسانية والاجتماعية وجاءت عدة مراسيم قوانين لتثمين البحث وتأطير الباحثين في العلوم الاجتماعية وتوجيهم إلى المواضيع التي تهم المجتمع ورجل الشارع؛ بل وحتى النخبة والفاعلين الاقتصاديين والسياسيين والمنظمات غير الحكومية.

وجاء مرسوم القانون رقم 2009/164 في 26 إبريل ليحدد طرق إنشاء وتنظيم المخابر ووحدات البحث في مؤسسات التعليم العالي إلى جانب هذا المرسوم تم إصدار القرار رقم 2011/1159 من تاريخ 29 مايو 2011، الذي يحدد معايير الترشح لإنشاء وحدة البحث والمخابر في مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي، وقد تعززت هذه النصوص بسن القانون ت0841 بتاريخ 20 مايو 2013، الذي يهدف إلى تنظيم مدارس الدكتوراه واللجنة الأخلاقية لهذه الهيئة.

قفز كمي ونوعي في البحث العلمي:

على إثر صدور مراسيم القوانين المذكورة، تم إنشاء هيئات مختصة في البحث الاجتماعي؛ فمن ضمن 53 مؤسسة بحثية من بين مخابر ووحدات البحث، نجد أن 26 هيئة لها أنشطة تتعلق بالبحث في شتى الميادين الاجتماعية والاقتصادية، في كل من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وكلية القانون والاقتصاد والمدرسة الوطنية للإدارة والمدرسة العليا للتعليم، والإحصائيات تؤكد أن هذه الهيئات تشتمل على اختصاصات في العلوم الإنسانية والاجتماعية[2] .

وفيما يخص كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ فقد تم إنشاء مراكز متخصصة، لدراسة الثقافات والظواهر وبعض المشكلات الاجتماعية التي تطرح على المجتمع الموريتاني، نذكر من ضمن هذه الهيئات المركز الجامعي للدراسات الصحراوية، الذي يقوم بترقية البحث الجامعي المتعدد الاختصاصات حول الفضاء الصحراوي ويهتم بمواضيع اجتماعية تهم العلوم الاجتماعية والتراث الثقافي.

1ـ الإنتاج العلمي في ميدان العلوم الاجتماعية:

يعتبر الإنتاج العلمي العمود الفقري لترقية العلوم، عموما، والعلوم الاجتماعية، بشكل خاص، وهذا ما فهمه العديد من الباحثين والمتخصصين في العلوم الاجتماعية والآداب؛ فاحتل إنتاجهم في هذا الاختصاص، حيزا كبيرا من المجلات والدوريات العلمية الوطنية، وحسب معطيات الدليل الإحصائي للتعليم العلمي؛ فإن 55 في المائة من المقالات العلمية المنشورة في المجلات المحكمة في موريتانيا، تعالج تخصصات الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والحضارة، وفي نفس السياق، يلاحظ كذلك، أن المواضيع المرتبطة بالعلوم الاجتماعية، تأتي في الصدارة، مقارنة مع غيرها من المواضيع، في ميدان الكتب العلمية .

إلى جانب هذا الإنتاج العلمي، شهدت السنوات الأخيرة تنظيم عدة أنشطة فكرية في الوسط الجامعي وفي العديد من الساحات العمومية، نذكر منها الندوات السنوية والمحاضرات المختصة حول التحديات الاجتماعية، والتي تم تنظيمها حتى الآن في تلك الفضاءات، وقد شهدت تفاعلا كبيرا.

2 ـ المواضيع ذات الأهمية الكبرى

فيما يخص بالمواضيع ذات الصبغة الاجتماعية، نرى أنه منذ أكثر من ثلاثة عقود تم الاهتمام ببعض الظواهر الاجتماعية التي تعتبر تحديات كبرى على المجتمع والسلطات وبعض المنظمات الأهلية، لكن فيما يخص بالبحث العلمي الاجتماعي في مؤسسات التعليم العالي هناك مالا يقل عن ثلاثة وعشرين هيئة بحث تهتم بالمواضيع الاجتماعية ومن أوليات هذه البحوث مواضيع تهتم بالعلوم والثقافة والتراث، كما أن جل البحوث المعدة لنيل شهادة الإجازة أو الماستير في شعبة العلوم الاجتماعية، تتناول مواضيع مختلفة ذات صبغة اجتماعية، وتركز على الظواهر الاجتماعية؛ كالبطالة والعنف والطلاق والتسرب المدرسي والتغيرات الاجتماعية والهجرة ومشكلة الدولة والقبيلة والدين والمجتمع والإرهاب ..إلخ

وباختصار؛ فإن البحوث الاجتماعية التي تمت مناقشتها، في الفترة الماضية، تشمل مالا يقل عن ثمانين موضوعا اجتماعيا أو ذا صلة وثيقة بالعلوم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية.

ومن الناحية الكمية وحسب المقابلات[3] التي أجريت مع مديري مراكز البحوث في كل مؤسسات التعليم العالي والمعطيات التي جمعناها؛ فإن حصيلة هذه البحوث التي تدخل في إعداد شهادة اللسانس أو الماستير لا تقل عن أربعة آلاف عنوان.

وفيما يخص البحوث الاجتماعية التي تمت مناقشتها في كلية الآداب والعلوم الانسانية والمدرسة العليا للتعليم والمدرسة الوطنية للإدارة؛ فهي دراسات تختص بكونها متوجهة إلى الميدان، كما أن جلها هيئ اعتمادا على مسح ميداني متعلق بحي أو جهة أو شركة

2. الدليل الإحصائي للتعليم العالي 2017 (وزارة التعليم العالي والبحث العلمي)
3. سلسلة مقابلات مع عديد من مديري مراكز البحوث

أو مجتمع أو قبيلة في الوسط الحضري أو الوسط الريفي[4] .

وإلى جانب البحث الجامعي تم أيضا إنشاء مراكز بحوث خصوصية مختصة، عن طريق باحثين أو شخصيات سياسية لها علاقة بالجامعة أو الساحة الإعلامية، من بين هذه المراكز، على سبيل المثال، المركز الموريتاني للبحوث والدراسات في العلوم الانسانية (مبدأ)، والمركز المغاربي للدراسات والبحوث الاستراتيجية، وغيرهما.

هذه المراكز جعلت من أولوية أنشطتها تنظيم ندوات علمية ومحاضرات حول عدة مواضيع اجتماعية تهم الوحدة الوطنية وقضية الرق، والصراع بين المعارضة والأغلبية والبطالة والتحولات الاجتماعية... إلخ

وقد دأبت هذه المراكز، منذ بداية الثورات العربية، على تنظم لقاءات عدة، حول القضايا التي تهم الشباب والمشاركة السياسية، بهدف استطلاع الرأي العام حول وضعية الشباب وأولوية التحديات التي تواجه هذه الفئة ولاسيما قضية التشغيل.

ومن الأنشطة العلمية، التي لها علاقة بالمجتمع، نرى، أيضا، أن الجامعة، ومنذ العام 2010، تنظم سنويا، ندوات تهتم بالقضايا ذات الأهمية العليا للشعب الموريتاني، نذكر منها الوحدة الوطنية، والتنوع الثقافي والمساواة، والتنمية المحلية، والتنمية الاجتماعية...

وقد رصدنا، في هذا الصدد ما لا يقل عن 40 موضوعا اجتماعيا كانت من بين المحاضرات العلمية والندوات الفكرية، في الوسط الجامعي، وعلى سبيل المثال، في كلية الآداب والعلوم الإنسانية من 2010 إلى 2016 تم تنظيم 15 محاضرة و17 ندوة علمية تهتم بالمواضيع والقضايا التي تطرقنا إليها آنفا.

وفي الفترة الممتدة من 2016 إلى 2017 جرى تنظيم 11 محاضرة و6 ندوات دولية، تم فيها الحديث عن شتى المواضيع الاجتماعية والاقتصادية، وقد وجهت بعد استكمال الأعمال العلمية توصيات وتقارير تنفيذية إلى الجهات المعنية بالقضايا المثارة؛ لاسيما، السلطات العمومية المعنية بهذه القضايا والمنظمات المدنية والأحزاب السياسية؛ سواء من الأغلبية أو من المعارضة.

إلى جانب التغطية الإعلامية للكثير من الأنشطة الجامعية يمكن القول بأن المحطات الإذاعية والتلفزيونية، لعبت دورا بارزا في التحسيس بأهمية مختصي العلوم الاجتماعية والباحثين الاجتماعيين في موريتانيا.

وفي هذا السياق دأبت القنوات التلفزيونية، كالوطنية والساحل والمرابطون، منذ العام 2010، على تنظم حلقات نقاش أسبوعية أو يومية، تستدعي لها كوكبة من علماء الاجتماع والاقتصاديين والسياسيين لتنوير الرأي العام حول انعكاسات أو تأثيرات قضايا الساعة على المجتمع.

خاتمة

يمكن القول بأن العلوم الاجتماعية دخلت الآن مرحلة تاريخية في موريتانيا من الناحية العلمية والأكاديمية، حيث بدأت هذه العلوم تحتل مكانة ذات أهمية كبرى في مجالات البحث العلمي، وتدريس علم الاجتماع، والإنتربولوجيا.

كما أن المناهج في العلوم الاجتماعية أصبحت تدرس في جميع الاختصاصات ذات الصلة (الاقتصاد، القانون، علم التسويق، الآداب إلخ).

ينضاف إلى ذلك، أن جل الأنشطة أضحت مهتمة أكثر، بالقضايا الاجتماعية العامة، التي تهم الشعوب العربية والافريقية، عموما، والمجتمع الموريتاني، بشكل خاص.

من الناحية الإعلامية، يعتبر المختص في العلوم الاجتماعية كمحلل اجتماعي أو خبير إعلامي يسعى إلى تنوير الرأي العام حول القضايا الاجتماعية التي يستعصي على المواطن البسيط تناولها أو فهمها.

وفي النهاية لا ننسى أيضا أن المختصين في علم الاجتماع لديهم دور مهم في الدراسات المتعددة الاختصاصات التي يتم إعدادها من طرف مكاتب الاستشارات أو من بعض المنظمات الدولية والمحلية في موريتانيا.

4. تم حضر هذا المواضيع عبر البحوث التي تمت مناقشتها في عدة ما بين 2008 إلى 2016

قائمة المراجع :

ABDALLAHI – KHODJA, K., SADEGH, I., KEBAD, I. Eléments d'une stratégie d'action pour la relance de l'industrialisation en Mauritanie. PNUD – ONUDI, Juin 2003, 55 pages. http://www.un.mr/publications/ind-khodja-rapport.pdf

2. Direction des Projets Éducation Formation, Programme National de Développement du Système Éducatif II, Plan d'action triennal)2012-2014(, Mai 2011, 134 pages. file:///C: /Users/lenovo/Downloads/2011-Mauritania-Education-Sector-Plan.pdf

3. Université de Nouakchott Al Asriya)UNA, Plan Stratégique)2017-2121(. http://www.una.mr/sites/default/files/PlanStrategique%2020172020.pdf

4. Université de Nouakchott Al Asriya, Plan Stratégique de la faculté des Lettres et des Sciences Humaines)2017-2021(. Août 2016

5. Université des Sciences, de Technologies et de Médicine - Comité de Pilotage, Rapport d'autoévaluation de l'Université des Sciences, de Technologie et de Médecine)USTM(et ses composantes)FST, FM, et IUP(, 61pages)

مريم عباس

المراكز الثقافية وإسهاماتها في تكوين الأجيال الموريتانية منذ الاستقلال وحتى اليوم

الحلقة الأولي: المركز الثقافي المصري

واجه الشعب الموريتاني، شحا كبيرا في الأطر المكونة، إبان قيام الدولة الوطنية، وقد رافق هذا الإشكال الدولة بعض الوقت، خاصة في ظل محدودية الموارد وقلة المؤسسات التربوية المعنية بالتعليم والتأهيل (بالكاد تتجاوز تعداد أصابع اليد، في السنوات الأولى من الاستقلال).

ومما زاد من حجم هذه المعاناة، بالإضافة إلى شساعة الأرض ووعورتها، امتناع الغالبية العظمى من السكان عن إرسال أطفالهم إلى المدارس النظامية، لدواعي دينية وثقافية؛ حيث ظل الكثير من علماء البلد وقادة الرأي فيه، يرفضون هذه المدارس، ويدعون إلى مقاطعتها باعتبارها وسيلة لإفساد الأخلاق والمروق من الدين!

هذه الوضعية الصعبة التي واجهها المؤسسون الأول، بدأت في التراجع شيئا فشيئا، مع ظهور بعض المراكز الثقافية؛ التي شكلت بيئة مناسبة لتثقيف وتكوين جيل من الشباب، منعتهم مواقف ذويهم من ولوج المدارس النظامية في سن مبكرة، وقد أرغمتهم الظروف الصعبة على ترك المحظرة، فهاجروا إلى المدن الكبيرة، وخاصة نواكشوط، بحثا عن مصدر دخل وحياة أفضل؛ ففتحت لهم المراكز الثقافية الباب مشرعا للحصول على التأهيل المناسب للخدمة في الدوائر الحكومية؛ حيث تخرجت من هذه المراكز أعداد معتبرة من الأطر قدموا خدمات جلية للوطن في مختلف مفاصل الدولة.

خدمات كبيرة قدمتها هذه المراكز، سنستعرض نماذج منها وشهادات عنها، في حلقات، بإذن الله، بادئين، في هذا العدد، بالمركز الثقافي المصري.

المركز الثقافي العربي المصري معين لا ينضب

جاءت فكرة إنشاء مركز ثقافي مصري في نواكشوط مطلع ستينيات القرن الماضي، على إثر اللقاء الذي جمع بين فقيدي الأمة: الرئيس الأستاذ المختار ولد داداه والرئيس المصري جمال عبد الناصر عليهما رحمة الله؛ حيث أمر الأخير بفتح مركز ثقافي عربي مصري في العاصمة الوليدة.

يهدف تأسيس المركز إلى إبراز الهوية العربية للبلد، وفتح قنوات للتبادل العلمي والثقافي والفني مع مصر وكافة الدول العربية على أساس التعليم الحديث والمناهج الجديدة التي تلائم العصر.

أهداف نبيلة قدم المركز المصري الكثير في سبيل تحقيقها منذ تأسيه وحتى اليوم؛ فقد كانت إسهاماته جلية وجليلة في مختلف المناحي الثقافية؛ حيث كون أجيالا في مختلف المجالات، وهيأ لهم ظروف الولوج للحياة النشطة.

وهنا نرى من المناسب التذكير ببعض هذه الإسهامات:

- بناء نواة أول مسرح وطني؛ حيث كون المركز فرقة على فنون المسرح من بين مرتاديه؛ شكلت النواة الأولى للمسرح الوطني.

وقد بدأت هذه الفرقة في تقديم عروض سينمائية؛ نافست عروض المركز الثقافي الفرنسي، التي كانت تقدم حينها، ومن المؤكد أن كبار المسرحيين والسينمائيين الموريتانيين زاروا هذا المركز في بعض الفترات.

- كما ساهم، كذلك، في خلق حركة شعرية حديثة مكنت الشعراء الشباب من الخروج من شرنقة الشعر القديم، إلى رحاب الحداثة والتأسي بشعراء العصر الحديث، وعلى رأسهم أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وقد مر من هذا المركز شباب يافع أصبح فيما بعد من رواد الحركة الشعرية الحديثة من أمثال ناجي محمد الإمام.

- كما لم يغفل المركز المصري منذ نشأته أهمية الإعلام فكان سباقا إلى تكوين نواته الأولى التي نهلت من الصحف المصرية العتيقة كالأهرام والجمهورية وروزاليوسف.

ومن إذاعاته كإذاعة صوت العرب.

وقد كان للنساء الصحفيات الموريتانيات حظا وافرا من الاهتمام الذي تجسد في البعثات التبادلية والدورات التدريبية العديدة، التي استدعي لبعضها خبراء من مصر، في حين نظم بعضها الآخر عن طريق التكنولوجيا الحديثة «فيديو كونفرانس» وشملت مختلف أنواع الصحافة والوسائل المستخدمة التقليدية والحديثة.

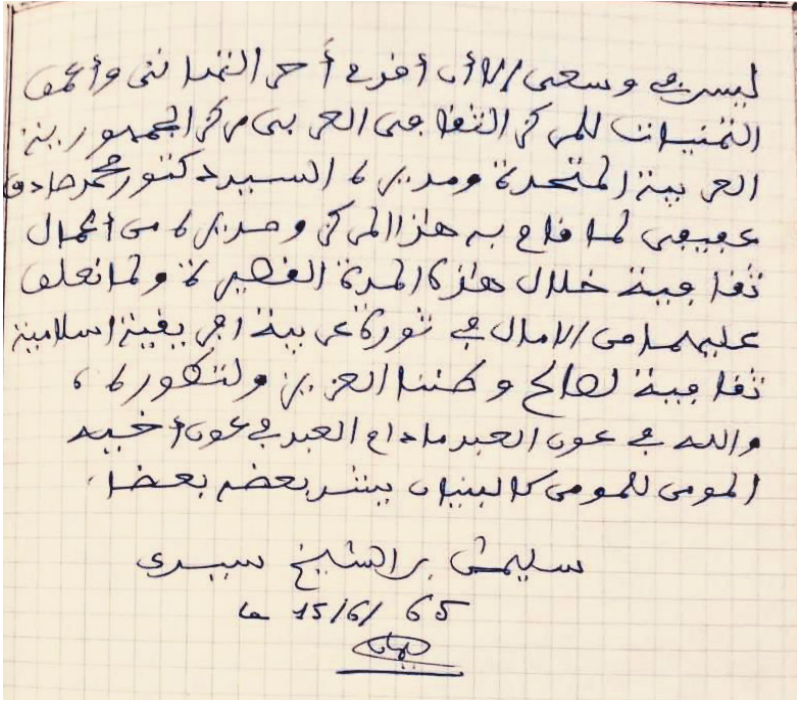

بسم الله الرحمن الرحيم

عودة الابن الى الام في يوم عيدها عودتي الى المركز الثقافي المغربي
أذكرني ماضي شبابي وشبابه الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات
محمد سالم محمد علي عبد الودود وزير الثقافة والتوجيه الاسلامي
في ٩/٤/١٤٠٩هـ

ولم يقتصر دور المركز على هذا بل تجاوزه إلى التعليم حيث افتتح فصولا لتعليم الكبار، والخط العربي، إلى جانب مكتبة كبيرة زاخرة بكل أنواع الكتب العلمية والأدبية والدينية نهلت منها عدة أجيال، أصبحوا فيما بعد دكاترة، وكتابا وصحفيين ومهندسين، يشكلون اليوم رقما مهما من مجموع الأطر الوطنية والقوى الحية في البلد.
ينضاف إلى ما تقدم الاهتمام البالغ من طرف المركز بالثقافة الموريتانية الأصيلة؛ حيث نظم الكثير من الندوات الفكرية والعلمية عن علماء شنقيط الذين مروا بمصر، في رحلات الحجيج، بالإضافة إلى ندوات أخرى تناولت المدن القديمة التي قدم منها هؤلاء العلماء، كما اهتم بالمقارنات بين الرافدين المصري والشنقيطي ليضع العديد من الدراسات والمخرجات المطبوعة والمسموعة والمرئية في خدمة الدارسين والمهتمين.
ولاتزال مكتبة المركز، إلى اليوم، تستقطب الكثير من الطلاب والباحثين للنهل من معينها، ولإعداد البحوث الرصينة من محتوياتها، كما لايزال مستمرا، كذلك، في تنظيم المحاضرات والندوات الفكرية التي يدعو لها الخبراء والأساتذة والأئمة والفنانين والفنيين من موريتانيا ومصر على حد سواء.
ومن الجدير بالذكر، أن المركز الثقافي المصري (مركز مصر للعلاقات الثقافية والتعليمية بموريتانيا حاليا)، لم يتأثر أداؤه - قط - بالتحولات السياسية؛ حيث ظل قلعة شامخة للعطاء العلمي والثقافي.

شهادات عن المركز الثقافي العربي

يقول عنه الدكتور محمد هيبتنا ولد سيدي هيبه»

«لعب المركز الثقافي المصري دورا رائدا في النهضة الثقافية التي شهدتها موريتانيا بعد الاستقلال، ولاسيما بخصوص إعادة الاعتبار للغة العربية من خلال دعم التعليم والأنشطة الثقافية المتنوعة واستقطاب الطلاب والمثقفين المتعطشين للمعرفة وللحاق بالحركة الفكرية والسياسية في الوطن العربي.
ساهم المركز أيضا في إدخال الحداثة إلى المجتمع الموريتاني من خلال السينما والمعارض والمحاضرات والأماسي الشعرية، الخ كان يقوم بهذا الدور موازنا ومنافسا للدور الذي كان يقوم به المركز الثقافي الفر نسي آنذاك.
أخيرا المركز الثقافي المصري كان رافدا فعالا من روافد الديبلوماسية المصرية، شأنه في ذلك شأن المراكز الثقافية عامة.»

ويقول عنه الشاعر ناجي محمد الإمام:

«كان المركز الثقافي العربي، وهذا هو

اسمه الرسمي في الوثائق الرسمية المصرية والموريتانية، ... كان استجابة مدروسة بعناية للمطالب والمتطلبات التي تخص بلدا عربيا ولغة عربية لا ينقصها إلا التحديث (يقول أحد اللبنانيين المنتدبين من طرف الدولة الفرنسية للإشراف على تدريب بعض العارفين باللغة العربية على تحديث معارفهم، يقول: إن موريتانيا لا ينقصها عن غزو الفضاء باللغة العربية إلا أن يتدرب سكانها على علامات التنصيص.»

العالية إبراهيم أبتي

على أجنحة التوق

(رحلة إلى أدغال موريتانيا)

بعد انقضاء أيام الحجر الصحي وما عشناه من القلق والتوتر، وجدت القدر يسوقني لذلك الشغف بالسفر الذي يسكنني، والذي زاد منه كم الأخبار والصور عن خريف استثنائي مغر للعيش أياما في أحضان الطبيعة بشكل مختلف.

أبدأ الرحلة وكأنها طريق مرسوم، ليتحول إلى طريق مجهول؛ إلى مواقف وتجارب ولحظات لا تنتهي.

وجوه المسافرين تحكي الكثير، تحكي الحلم والألم ولكنها تحكي الاختلاف والتأمل!

أتأمل حقيبتي الصغيرة السوداء التي وضعتها بحيث يمكنني وضع دفتر، أحاول فيه رسم معالم الرحلة، أحاول إخراج الكلمات التي بدأت تتشكل داخلي وأنا أستمتع بشغف وحماس!

الرحلة تكسر رتابة الحياة وتعطينا دافعا إضافيا للمضي في تحقيق أهدافنا بنفس حماس البداية، فكيف، والرحلة داخل الوطن؟

دعوني، إذن، أحدثكم عن جمال التفاصيل الصغيرة والتعب الممتع والغوص في الطبيعة والإحساس، بجمال الاختلاف وثرائه.

ننطلق من مدينة نواكشوط المسكونة بالرتابة، نتحسس الطريق الصعب يحركنا الشوق والحب... يصمت الجميع ويبدأ صوت السِّحر المنطلق من حنجرة المرحومة ديمي يواسيني وتنساب معه روحي على شكل دمعة:

فرحني فلعني مخفي
و ألْ ما نفهم و أنت حشاك
من تخفاك أمساله و اعفي
ذمبي من ذاك و ذاك و ذاك.

آه...ماذا بعد؟...أكررها بصوت يغالب أنفاسي ونحن نصل لأبي تلميت، كان الجو مغريا جدا للتوقف و لعله وقت مناسب لأخذ قسط من الراحة على تلك الرمال الحريرية.

نتذكر أن متعة الشاي لا تكتمل إلا هنا...كيف لا ونحن غير بعيد من «عين السلامة»، نتنسم صفاءها؛ فقد مر من هنا قوم كرام تركوا للمكان سحره.

هنا جميع المغريات للكتابة، للحديث، للقراءة، للتأمل...وإعادة رسم حدود الخريطة قبل أن نغادر ولسان حالي يقول:

ودعته وبودي لو يودعني
صفو الحياة وأني لا أودعه.

... الوقت يمضي سريعا ولكنه لن ينسيني تلمس الحصى بأقدامي واستعادة الذكريات!

ثم ننطلق ونعبر «أمبدية بور» وسط مدينة بتلميت، حيث ذاكرة أسفار من الحب والعبودية والخرافات وتشكل المدنية والدولة.

يسكنني الصمت والتأمل، فليس هذا وقت الكلام...

أتأمل بائع الخبز وقسمات وجهه المتعب من آثار الدخان، وهو يبتسم عارضا بعض خبز الحطب، وتلك الفتاة النحيلة ذات العيون الخجولة وهي تعرض النعناع...هؤلاء هم الوجه الصادق للحياة.

بعد أخذ ورد نواصل الطريق، ويغالبني النوم المتقطع بسبب الطريق الرديء والمليء بالحفر، وكأنه يستفزني كي أظل مستيقظة.

أُخرج من حقيبتي رواية «حياة مثقوبة» والتي ستشدني شدا وأدخل في عالم آخر من الإبداع، وفي غمرة ذلك وبعد ساعات أجد ريح «كامور» غير بعيد... حيث المحطة الثانية.

هنا «چوك» حيث جمال ارتفاع الأرض وانتظام الجبال مشكلة سلسلة لعصابة، هنا تعانق الكثبان النخيل والشجر الصخور الملونة...لوحة مغرية للتوقف والتأمل في التفاصيل!

توقفنا عند «اشگيك» وأخذنا برصّ كؤوس الشاي في انتظار غروب ليس كالغروب بل إشراقة مسائية ثانية؛ حين تتوسط حمرة الشمس بياض غيوم متكتلة تنتظر استقبال القمر في ليلة تمامه....!

ما إن جن الليل حتى دعانا صديق من

ساكنة المدينة لتجربة «لعزيب»، ليست المرة الأولى، فقد خبرت المدينة سنين خلت، ولكن تجربة اللحظات الممتعة لاتنقضي... مر الوقت سريعا وأخجلنا الكرم بكافة أنواعه، بقي معي بعض تفاصيل لوحة، بت أتأملها، السماء المكسوة من قطع الغيم وسط القمر المضيء العاكس لضحكات من معي!

لا أملك حيال هذه اللحظات إلا أن أستسلم لنفسي وأذهب حيث لا أعود ثم يسرقني النوم من هذه اللحظات.

في الصباح الباكر ألبس حذائي الرياضي وأتناول قنينة الماء، أتنفس كأني في حصة «يوغا»، كأن هناك حملا يحتاج الخروج هنا...حتى تشرق الشمس إيذانا بيوم جديد لا أريد التنبؤ به.

آه.. لو بوسعي البقاء هنا، حيث تفاصيل الطبيعة ونقاؤها!!

إذا أنا لم أذرف دموعي دما فهل

نجوت ويا كامور هل لي من عذر؟

سننطلق باتجاه كيفة المدينة النابضة دوما، على طول الطريق نتعانق مع الصخور الناطقة، شعرت أن شيئا غريبا يشدني إلى كل حجر فيها.

وما إن وصلنا حتى فكرنا في الذهاب ل «كنكوصة»، كنت مترددة كثيرا ولكن عهدي بالمكان قبل إنشاء الطريق؛ هو حنين خاص لا يمكنني وصفه ولكنه يشبه الانتماء...تسلق أعلاب «توگ اتغير» كي يكتمل مشهد «لمسيله»، تغير المكان لدرجة كبيرة ولكنه ظل محتفظا بتفاصيله؛ جداول المياه الرقراقة ومعانقة النخيل لها وذاك الهواء المتسلل من بين الأشجار يجعلك تقول:

لمسيله بعد إلا تميت

تذكرها ماخلكّت حيله

لمسيله يعكّلي فغنيت

ماه كاع ألا لمسيله....

وذاك أص هو بل امنين

عادت لمسيله لمسيله!

تركت حقيبتي ودفتري في السيارة وجلست وحدي أستمع لصوت قادم من بعيد يهمس لي «أن أحبيكِ»، هل علي اختبار كل الحنين هنا أم استدعاء شعور لا أكاد أحسه حتى يغيب!

سأتوقف عن الشعور والتفكير لبرهة، وأتذكر أن علي مواصلة الطريق.

رغم أن التعب نال منا في منتصف الطريق، إلا أن دافعنا للمواصلة، كان أقوى بكثير من كل ما خططنا له!

حللنا ضيوفا على أهل كيفة الكرام، وأخذنا ما نستطيع من الزاد والماء وانطلقنا باتجاه الطينطان، وبالتحديد في «حي اسماليل»، كان علي إخفاء قلقي بعد أن أضعت محفظتي...كانت دعوة كريمة من صديقة كريمة، أخذنا مجلس «لهو» لا تتخلله غيبة ولا نميمة رغم أننا نسوة...كان الحديث عن المكان وأهله، عن تفاصيل كثيرة وطفقت أصغي لتلك المرأة الفاضلة وهي تحدثني عن أيام خِلت أنني عشتها من متعة الحديث عن البادية والترحال وبساطة الشعور والسعادة بكل شيء.

سيأخذني القمر إليه مرة أخرى لا يقطع صفوه إلا التفكير في كل شيء عدا الخروج من هذا العالم الصافي لتكون ليلة غير محسوبة.

أجدد هوايتي في المشي الصباحي والتي ستسوقني لمُراح البقر وارتشاف اللبن طازجا والأهم محادثة الراعي وهو يربط العجل إلى ساق أمه بفنية لم يعد يلقي لها بالا لفرط تعودها!

يأخذني الوقت وأغادر بشوق مازال يلازمني لمزرعة «افريدي»، حين وصلت سألني الفاضل «حسني» أين أفضل أن أمضي وقتي رددت ببساطة «اتركني هنا»، اشتقت لمنطقة «أفله» الثرية برمالها الناعمة وأوديتها الجميلة، وصخورها المشكلة لوحة فريدة!

المميز هنا، إضافة لكل ما قد تجده من صفاء، هو زرع الأشجار والنخيل وهي فرصة لتجربة تفاصيل الطبيعة المرسومة بعناية الخالق.

المكان يترك بصمته الخاصة لأي متذوق للطبيعة البكر، هنا الوقت الطبيعي لكل شيء، تصور حتى التفكير...الأفق تتخلله الغيوم وقطرات الماء البلوري

الموكب الثقافي
مجلة ـ علمية
نصف سنوية ـ تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم
CNEC'S

على لون الزرع يذكرني بوجه محب ازداد جمالا برؤية محبوبه.
ككل المناطق الآسرة يمر الوقت سريعا وآخذ قسطا من الراحة مع مواصلة الغوص في كتابي الذي أخذتني الطبيعة عنه، سننطلق في المساء إلى «أقرقار»، وهي المرة الأولى التي أزوره...سأتجه ل «حاسي البركة» وأستمتع بليلة هادئة مع نسوة أخذنني لزمن «لشوار»، تذكرت للحظة أنني منقطعة منذ أيام عن العالم، كأنني سافرت عبر الزمن...لست متصلة بالأنترنت، لا تلفزيون، الوقت مشغول بتفاصيل الرحلة المغربية أكثر وأكثر...يتواصل الحديث بين «الذحايا» تحت ضوء القمر ونسيم عليل ينسينا كل أيام خلناها حزينة.
التفاصيل مغربية بالكثير ولكن مرة أخرى أكرر في نفسي علي الذهاب ولكن قبل ذلك، علي المرور ب «إريجي اسويكية»، حيث الماء الجاري بين الصخور...لو غسلت منه رجليك لتصوفت.
الطريق ليست سالكة ولكنها تخترق النفس اختراقا.
الأرض لبست لونها الأخضر اللامع والساكنة تتلقاك وكأنك حبيب راجع من سفر بعيد.
كانت المحطة الأقل زمنا، الأكثر عمقا!
رجعنا آخذين معنا زاد النفس المثقلة... مواصلين نحو مدينة «لعيون»، بدأت السماء تأذن بمطر وشيك:
ؤيركب نو اكبير امرح
والبراكْه تحته ردف
ألي إكول أن النو اصلح
وألي إكول أن النو أصف.
سيجعلنا ذلك نقرر المضي باتجاه «تمبدغة»، ولكن ذلك القرار سيجعلنا نعيش ليلة ممطرة صعبة، في كل مرة علينا اختبار عمق المياه لتجاوز الصالات على طول الطريق، بين ذلك وذلك نتوقف ونتبادل النكات على وقع ردّات لديمي «في لبياظ»:
ثقل لحزيم أوذي اتجد
لحزيم الكْاطع مول
مثقل عوداني ماانكْد
مول لحزيم انكْول.
ستغرق حقيبتي بكل ما فيها بالماء، ولا نستطيع كبحه؛ بل سيصلنا نحن، مؤذنا بليلة باردة لم نضعها في الحسبان، ولكنها كانت من مواقف الإثارة في الرحلة خاصة في تلك الفترة المميزة!
نصل متأخرين مرهقين مبللين في ليلة مقمرة أيضا، تستقبلنا «أم العباس» بكل كرم وطيبة أهل «اتنيبة»، وتصر أن أمضي ليلتي في المنزل وألا أبرح المكان كأنها أحست حالي، ولكن قبل أن أنام علي إخراج كل شيء.
لأول مرة منذ أيام لا أستيقظ باكرا، الساعة تشير للثامنة وهو وقت الرجوع، خرجت رفقة زملاء نحو «الكركار» وقد ألبسه سبحانه حلة بديعة، هنا حكايات قوم لم يندثروا، من هنا مر آخر الرجال الشجعان، هنا مر أولاد امبارك.
قبل أن أغادر للبادية، إذا بي أتمتم بشور «ألا احكم» من بقايا جنون اللحظات !
ماني منت عمك
ولاكْارجن دمْ
ألا احكم
ذالدمعه التمشي
ماهي لك عن شي
«يلالك يان ألا احكم».
أغادر بعد يوم مليء بالتفاصيل والكرم العفوي والأحاديث العابرة للزمن!
يبقى المميز في تمبدغة قدرتها على جعلك تتخيل دائما أنك في استقبال ملكي، غادرت ودمعي يسبقني ولولا الزمان لبقيت في المكان!
تنادينا مدينة «النعمة»، المدينة الهادئة الناطقة بحنين الماضي... ولكنني في كل مرة أجوب المكان أتجاوز المدن بحثا عن جمال أعماقها وثرائها.
لا أعرف لماذا اتجهت فورا لجبل «انكْادي» لعله فضول الاكتشاف وتجربة تسلقه علني أتخيل كيف كان أولاد امبارك «يُروِّحون» عرائسهم عليه وكيف ألهم الأمير الكفية ولد بوسيف رحمه الله.
كْلب انكادي وانواو دار
دارو فالكلب ألّي اندارْ...
كان الوقت غروبا وكنت أتسابق مع الوقت علني أفلح في الوصول للسفح وحين تحقق لي ذلك، إذا بضحكة تخرج عنوة كأنها تترجم بعض تفاصيل أحسستها مازلت في الأسفل.
بدأ العد التنازلي لأيام مرت سريعة وتركت التفكير في أعماق النعمة وماإن حل الليل وبالتحديد في «بكر ماصلّ»، حتى صرنا في ضيافة زملاء غادرونا مع الزمن ولكنهم لم يغيروا، أهدتني

المدينة فرحا خاصا ارتبط بها وأنسا لمسته وأنا أتمشى بين جنباتها ونفسي الهائمة المسائلة الشغوفة بالأسئلة تردد: وماذا بعد؟

في الصباح الباكر أعود لعادتي التي سترافقني فيها هذه المرة إحدى فتيات الحي وسأهديها نصيحة لا أعرف إن كانت ستأخذبها، تكفيني ضحكتها الصامتة كي أعرف وقعها في نفسها.

أمضي بعدها لمنفى «انوفل»، الذي أبقى لنا أثرا تراثيا عظيما حين عزف لنا مشيه، فكان ذلك المشي الأسطورة رأس جانبه هي أعذب وأعظم طرق «أزواننا» ..

وبعدها مباشرة توجهت إلى «باسكنو».

صدقا، لا يمكنني الحديث عن المدينة لأنني لم أكتشف معالمها...بعد اتصال هاتفي بأنه علينا الرجوع ل «چكّني»....

بدأنا الرحلة في الزوال، سحرنا الطريق وأكملت الكتاب وبدأت في الكتاب الثاني أيضا «انتظار الماضي»، لا أعرف لماذا تبدو كلمات الكاتب أحمد ولد إسلم رقيقة للسفر لعل السحر يجمعهما.

سآخذ جولة صباحية في كل من «اغليك الشيخ الحسين» و«اغليك محمد الجيد» ضواحي المدينة حيث استسلمت لانغماس أحذيتي في الطين.

هنا يلتقي الماء والخضراء كوجه من أحسن أوجه الطبيعة يجعلك تتساءل كيف لمن يبحث عن الجمال وعن الكمال ألا ينغرس في هذه الربوع؟

كيف لا نبحث عن ذواتنا ونحب اختلافنا تماما كانعكاس طبيعي لعبقرية صنع هذا الكون.

ستسكنني الأماكن أكثر من غيرها وأغادر بكل شوق وحنين...

اختبرت تجاوز الحجارة المرصوصة في مجاري المياه كأنني أجرب لعبة البهلوان بدون قواعد.

أغادر لمحطتي الأخيرة «مدبوگو» التابعة ل «كوبني»، فلم يعد الوقت يسمح لغيرها...كان هدفي الأول اكتشاف «الصوگ» (السوق المحلي للساكنة وله يوم محدد حسب جدول الأسواق)، أعرف تماما أنه لم يعد بشكله العادي، ولكن يكفيني اكتشاف تفاصيل تشكيله.

وصلنا مساءً لكوبني الصاخبة وتوقفنا عند المستشفى، كان أحدنا مصابا بسعال شديد...لنجد أمامنا رجلا من الفلان يبحث عن من يوصله ل«اكّميميم»، ولا نعرف كيف استطعنا التفاهم ولكنه الإلهام والقدر أن نلتقي كي نوصله ويوصلنا...بعد تبادل للتحايا بدأنا الطريق وهي طريق مفتوحة بالكاد تجد فيها ساكنة، توقفنا في الطريق لصلاة المغرب وبالتحديد عند «أكّرج أهل يباوة»، وجدت امرأة دعت لي كثيرا وقالت لي بكل عفوية «الزين يبغي ش زين»، كانت صادقة ولا مستني وبالكاد جلسنا نتحدث عن «منمن بنت لكويري» المرأة الحديدية التي خلدها المكان.

سنواصل حتى نصل ل«مدبوگو»، كأني أحس أنني أريد العشاء ب «باسي» فأحضروه وأحضر اللبن والشاي وبدأ السؤال المعتاد «ما الذي جاء بكم»....

يأخذ الحديث مجرى آخر عن السوق وتفاصيل سقاية المياه والمدرسة...

كان حديثا وديا بسيطا صادقا، لحظات مختطفة من الزمن للاستماع للبسطاء في أقصى نقطة من الوطن.

في الصباح ذهبت إلي حيث «الصوگ»، ذهبت وحدي وتركت حقيبتي حيث كنت...انشغلت في تأمل وضع البضائع واختلافها، بل واختلاف مروجيها...هنا الموريتانيون (العرب والفلان) والماليون (الأعجام)...فكرت في أخذ غرضين فقط...عقد تقليدي للوالدة ولثام من «توبيت» للوالد، أخذ المروجون في التزايد وأخذ الناس يأتون من كل مكان...

وجدت سيدة قادمة من «چكّني» وما إن ذكرت لها أنني قادمة منها حتى أهدتني خاتما و«حبّسته» علي، كانت سيدة أربعينية تشي قسماتها بنبل وعزة مع ظروف عودتها على التعايش معهم.

وما إن امتلأ المكان صخبا وتجولت فيه، حتى غادرته وقد طبع معي ذلك المشهد المثير!

رجعت إلى حيث كنت وبدأت رحلة العودة التي فتحت شغفا من نوع آخر.

الموكب الثقافي
مجلة ـ علمية
نصف سنوية ـ تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم
CNECS

د/ محمد إسحاق الكنتي

أمثالنا الشعبية..

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ؛ العنكبوت 43

قال، في تفسير الطبري.. يقول تعالى ذكره: وهذه الأمثال، وهي الأشباه والنظائر نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ يقول: نمثلها ونشبهها ونحتَجّ بها للناس، كما قال الأعشى:

هَلْ تَذْكُرُ العَهْدَ مِنْ تَنَمَّصَ إذْ
تَضْرِبُ لِي قاعِدًا بِها مَثَلا

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ يقول تعالى ذكره: وما يعقل أنه أصيب بهذه الأمثال التي نضربها للناس منهم الصواب والحقّ فيما ضربت له مثلا إلا الْعَالِمُونَ بالله وآياته.

ضرب القرآن الكريم الأمثال لأنها كانت من ثقافة العرب في الجاهلية، يتناقلونها استحسانا، ويقفون عندها حجة يذعنون لها.

لم يهتم العرب فقط بمعنى الأمثال، وإن كان عليه المعول، وإنما اعتنوا بمبناها فجاءت جزلة بليغة يسهل رسوخها في الذاكرة، وربما توسلوا إلى ذلك بالأساليب البلاغية. قد يعود ذلك إلى ثقافتهم الشفاهية التي لا تستجيب لشروط التدوين، فكان لا بد من اصطناع صيغ لغوية «تدون» في الذاكرة تجارب وحكم تغني الثقافة وتوجه السلوك؛ فكانت الأمثال تكثيفا للمعنى واختزالا للمبنى يوسع المدارك مع تضييق المساحة المشغولة من الذاكرة.

اعتمد عرب الجاهلية، باستثناء أفراد، على الذاكرة لبناء حياتهم الثقافية والدينية، والتعامل مع محيطهم الطبيعي، مما فرض عليهم شكلا من القول تستطيع الذاكرة استيعابه، واسترجاعه عند الحاجة، من هنا فائض الشعر والسجع، والأمثال في لغتهم المتداولة. وربما تفسر هذه الحال كثرة المترادفات، في الأسماء خصوصا، بشكل لافت، فتعدد الأسماء لمسمى واحد يعين الذاكرة على استحضاره؛ فإذا نسي العربي أحد أسماء الأسد، فإنه لن ينسى السبع مائة، دفعة واحدة، وقس على ذلك.

نجد صدى لهذا «القول» الجزل البليغ المعد «للحفظ» في القرآن المكي الذي تمتاز سوره بتكثيف المعنى واقتصاد المبنى في لغة يستثير جرسها المشاعر وتحمل رسالتها على التأمل.

لم يطرد ذلك في القرآن المدني الذي انشغل بجدال «أهل الكتاب» فطال نفس مبنى الآي، وتعددت الأغراض في السورة الواحدة، غير أن الأمثال اطردت في المدني بصفتها مصدر اعتبار وأداة إقناع.

إذا انتقلنا إلى المجال التداولي «العربي الحساني» نجد أن الأمثال تشغل حيزا معتبرا في الثقافة الشعبية الشفاهية حيث ينهض المثل فيها بنفس الوظيفة التي نهض بها عند الجاهليين.

تعددت الدراسات عن أمثالنا الشعبية وقيمتها الثقافية واللغوية ما يجعل الكتابة، مجددا، في نفس السياق تكرارا تتراكم «فوائده» دون إسهام حقيقي في «نمو» التفكر حول أمثالنا الشعبية؛ لذلك ربما كان من الحصافة الاستثمار في قول جديد، عملا بالمثل الشعبي « كل جْديد...»

يتلخص «الجديد» في «التنقيب» عن الآثار الجانبية لأمثال تحقن بها الذاكرة الجمعية دون انتباه غالبا لتلك الآثار.

ومن المعلوم أن مضار الآثار الجانبية لا تظهر إلا بعد فترة طويلة نسبيا لاعتمادها على التراكم الناتج عن المواظبة على استعمال المادة ذات الآثار الجانبية.

ولعل من أمثالنا الشعبية الأكثر استعمالا حد الإدمان، «ذَ ماهُ أكبر من كَدُّ». تستخدم هذه العبارة للتقليل من «قيمة» قول أو فعل، مخافة الشطط في تفسيره، لكن هذا الخوف يجر غالبا إلى نزع القيمة عن أمور كثيرة، حتى غدا كل شيء «ماهً أكبر من كَدّ».

يحمل منطوق المثل مفارقة واضحة؛ فليس في الكون شيء «أكبر من كَدّ»، فكل شيء بقدر؛ هذا القدر يخضع للتقييم حسب الموقف الذي يمارس فيه التقييم، وحسب الممارس ذاته. غير أن جريان العبارة على الألسن بإفراط أفقدها المعنى الأول الذي وضعت من أجله، فأصبحت مطية كل من يريد تتفيه أمر ما، وإن كان في ذاته جللا؛ فالإخلال بالالتزامات «ماه أكبر من كَدّ»، وانعدام الوطنية، والصدح بالولاء لهذا الجار أو ذاك..»ماه أكبر من كَدّ»...

وهناك أمثلة وضعت للتثبيط، وتأبيد أوضاع اجتماعية معينة. من العينة الأولى قولهم..»ألّ ما جَ فوّل الكَصعَ ما يْجِ فاعكَابَه». والواقع، والتجربة يثبتان عكس ذلك؛ فكم من نجاح تحقق بعد عدة تجارب فاشلة.. ومن أمثلة تأبيد الأوضاع الاجتماعية القائمة ومحاربة الحراك الاجتماعي الذي يسمح بالانتقال من وضع اجتماعي أدنى إلى آخر أعلى، قولهم.. «طاحْ ألّ اركب فرس ما مْخلِّيهْ لْ بوهْ». فهذا المثل يعلي من شأن العظامية على حساب العصامية. ومن المعلوم في تجاربنا الاجتماعية أن العظامية ليست أفضل طريق للتميز، كما يقول مثل آخر «أشْهابْ إخلّ ألا ارمادْ»؛ فكم من عالم جليل، وشاعر مفلق لم يذكر أبوه في العلماء ولا في الشعراء، وكم من رعديد أنجب فارسا. وكم من عالم اطرد الجهل في عقبه، وفارس لم يخلف سوى الجبناء...

خلاصة القول أن الأمثال ليست دائما «حكما» تعلم للنشء، ولا هي خلاصة تجارب واقعية، وإنما قد تكون «صيغا مكرسة» لخدمة أغراض اجتماعية ضيقة يتلقفها الناس دون تمحيص فتصبح تراثا يؤثر في حياتنا بطرق سلبية عديدة، ذلك أن «صياغتها» تعلق بالذهن وقلما يفتش الناس مخبر ما استهواهم منظره؛ لأن المنظر يمتع الحواس، بينما يرهق المخبر العقول؛ وبين المتعة والإرهاق يختار غالب الناس لذته ويتهم عقله.

هذا مقال رأي يتحدى مثلا شعبيا؛ «أرايْ ما يتكَرْ»، وللقارئ أن يشتري، أو «إسومْ» على الأقل، ففي السوم أجر حسب مدونات الباعة...

إعداد: د سيدي أحمد ولد الأمير
باحث وإعلامي موريتاني

السياحة الثقافية في موريتانيا.. المؤهلات وسبل الانطلاق

ملخص:

مع نهاية القرن الماضي وحتى اليوم نلاحظ تطور صناعة السياحة الثقافية التي باتت صناعة متكاملة تتضمن المراحل الكفيلة بتحقيق نتائج تنموية من تخطيط واستثمار وتشييد وتسويق وترويج. وعلى هذا باتت السياحة الثقافية عاملا مفيدا ومساعدا للتنمية الاقتصادية.

ومن حولنا في دول المغرب العربي وكذلك في بعض دول إفريقيا الغربية نرى اهتماما بتثمين السياحة الثقافية في المنطقة وتطويرها وإعطاء هذا القطاع دوره الكامل في العملية التنموية.

ومن هنا تأتي هذه الورقة للتعريف بالسياحة الثقافية بموريتانيا والتعرف على مقوماتها وأقطابها، والوقوف على أهم التحديات والمعوقات التي تواجهها، وتناول سبل الانطلاق بهذا القطاع نحو آفاق واعدة. وقد قسمنا هذه الورقة إلى ثلاثة عناصر بادئين بالعنصر الأول وهو السياق النظري العام لقطاع السياحة الثقافية بموريتانيا، وفي العنصر الثاني حللنا مقومات واتجاهات السياحة الثقافية في موريتانيا، أما الثالث فوقفنا فيه على آفاق تطوير القطاع السياحي الثقافي الموريتاني.

كلمات مفتاحية: موريتانيا- صناعة السياحة الثقافية، التنمية السياحية الثقافية، مقومات السياحة الثقافية.

مقدمة:

واقع السياحة الثقافية في موريتانيا واقع واعد، والإمكانات السياحية في مجال الثقافة في هذه البلاد هائلة، لكن هذا الواقع وتلك المؤهلات لا يتناسب الاهتمام بها مع تطورات صناعة السياحة الثقافية في العالم والتي شهدت تطورا كبيرا وخاصة في العقدين الأخيرين. إن تطور وسائل النقل والمواصلات والاتصالات جعلت العالم قرية كونية صغيرة، وذلك ما حدا بالعديد من الدول والعديد من التنظيمات المدنية إلى إعطاء قطاع السياحة الثقافية الأهمية التي يستحق في تنشيط الاقتصادات الوطنية؛ لما للسياحة الثقافية من تأثير مباشر أو غير مباشر في هذه القطاعات، ولما يحقق للدول من فوائد كبيرة سواء من حيث تشغيل اليد العاملة أو من خلال العائدات الكبيرة التي تحصل عليها الدول من هذا القطاع.

ولا تزال صناعة السياحة الثقافية في موريتانيا تواجه الكثير من الصعوبات التي حالت حتى الآن دون وصولها إلى المستوى المطلوب الذي يلائم ما تمتلكه البلاد من المقومات الكثيرة التي تجعل منها دولة رائدة في مجال السياحة الثقافية، فلا بد من استراتيجية واضحة ومتكاملة للنهوض بهذه الصناعة.

وسنحاول تناول الإشكاليات التي تطرحها هذه الدراسة كالتالي:

المحور الأول: الإطار المفاهيمي للسياحة الثقافية

مفهوم السياحة الثقافية:

لا يوجد تعريف موحد للسياحة بشكل عام ولا بالسياحة الثقافية بشل خاص، ومن بين تلك المحاولات ما يربط السياحة بالطبيعة والبحث عن الراحة، ومن ذلك ما سطره الألماني جوبيير فرولر الذي عرف السياحة بأنها: «ظاهرة طبيعية من ظواهر العصر التي تنبثق من الحاجة المتزايدة للحصول على الراحة والاستجمام، والإحساس بجمال الطبيعة، والشعور بالبهجة والمتعة من الإقامة في مناطق ذات طبيعة خاصة»(1).

وبعض المتخصصين يربط السياحة بالاقتصاد ويرى أن مفهوم السياحة لا يخرج عن حيز الحقل الاقتصادي، من ذلك مثلا رأي الاقتصادي النمساوي هيرمان فوشوليرون أن السياحة: «تطلق على كل العمليات المتداخلة وخصوصا العمليات الاقتصادية التي تتعلق بدخول الأجانب وإقامتهم المؤقتة وانتشارهم داخل وخارج حدود منطقة أو دولة معينة»(2).

وهناك من يربط بين السياحة عموما بالمجال السياسي وحدود الدول؛ حيث يرى الباحث السويسري هنزكر وكرافت أن «السياحة هي مجموعة من الظواهر والعلاقات الناشئة عن سفر وإقامة السائحين طالما أن ذلك لا يؤدي إلى إقامة دائمة لهم ولا يرتبط بممارسة عمل مأجور»(3).

وغير بعيد من هذا المفهوم ما ذهبت إليه منظمة السياحة العالمية في تعريفها للسياحة بأنها: «نشاط من الأنشطة التي تتعلق بخروج الفرد عن الوسط الذي يقيم فيه ولمدة لا تتجاوز سنة، لغرض الترفيه والاستمتاع أو غيرها على ألا تكون مرتبطة بممارسة نشاط بهدف الحصول على دخل»»(4).

وبخصوص تعريف التراث الثقافي فيمكن

أن نميز بين ثلاثة عناصر:
• التراث الثابت: ونعني به المعالم الأثرية، والمباني القديمة منعزلة كانت أو متصلة.
• التراث المنقول: ونعني به القطع الأثرية والمواد التاريخية والمخطوطات والمواد ذات القيمة الثقافية من منتجات الصناعة التقليدية والحرف وصناعة الفخار...
• التراث غير المادي: ونعني به التراث اللغوي والعادات والموسيقى وأنماط السلوك الثقافي(5).

يفهم من هذه التعريفات أن السياحة بشكل عام ترتبط بحرية الإنسان وتحركه السلس في المجال الجغرافي من إقامته العادية إلى أماكن أخرى بقصد التنزه والترفيه والمتعة والاستفادة دون البحث عن كسب مادي، ودون البقاء مدة طويلة في الجهة المقصودة.
كما يفهم منها أن للثقافة مناحي متعددةً وواجهات متنوعةً منها ما هو مادي ومنها ما هو منقول ومنها ما هو غير مادي، وجميع هذه العناصر متوفرة في موريتانيا بكثرة وتنوع.
وفي الخلاصة فإن السياحة الثقافية تعتمد على التراث المادي والمنقول وغير المادي، وهي نشاط يقوم به فرد أو مجموعة أفراد، قائم على التنقل من مكان إلى آخر أو من بلد إلى آخر، بهدف زيارة مكان معين وينتج عنه الاطلاع على حضارة وثقافة شعب معين، واكتساب ثقافة ومعلومات جديدة، والاحتكاك بوسط اجتماعي جديد؛ لإشباع رغبة معرفية وتوسيع دائرة المعلومات الثقافية والتاريخية والحضارية.

مكانة السياحة الثقافية

تعتبر السياحة الثقافية جزءًا من السياحة وتعني السياحة الثقافية استكشاف التراث المادي وغير المادي وما يندرج تحته من أمور كالآثار التاريخية والمعمار التقليدي وما تركته ساكنة البلاد من عناصر ثقافية تعكس هوية البلاد وتطورها التاريخي والاجتماعي. وفي هذا السياق لا بد من التأكيد على أهمية الأماكن المقدسة كالمساجد العريقة ومزارات الصلحاء مشايخ التصوف التي تعتبر جزءا من التراث الثقافي الديني والاجتماعي؛ لما لها من دور يتعلق بالجوانب الروحية للإنسان فهي مزيج من التأمل الديني والثقافي.
ومن أبرز وظائف السياحة الثقافية زيادة المعرفة لدى الشخص من خلال تشجيع حاجاته الثقافية للتعرف على المناطق والدول وتراثها، وهي مرتبطة بالتعرف على التاريخ والمواقع الأثرية والشعوب وعاداتها وتقاليدها(6).

وتعتبر السياحة الثقافية اليوم مقوما رئيسا وغير متكرر وقابلا للمنافسة؛ نظرا لاعتماده على التراث الثقافي بجانبيه المادي وغير المادي. وقد طور العديد من البلدان في السنوات الأخيرة السياحة الثقافية مسايرة لرغبات السياح الذين أصبحوا يفضلون هذا النوع من السياحة من أجل معرفة واستكشاف المكونات الثقافية التي تزخر بها مختلف المناطق، وتمتاز بها الشعوب.

المحور الثاني: واقع قطاع السياحة الثقافية في موريتانيا

أولا: المقومات الثقافية الموريتانية للسياحة

تزخر موريتانيا بعدة معالم تاريخية وثقافية ودينية جديرة بأن تلقى العناية والاهتمام الكافيين من طرف الدولة وأن تكون وجهة مفيدة للسياح:

- في الجانب التاريخي:

عرفت موريتانيا قيام امبراطورية غانا التي بسطت نفوذها على العديد من دول الساحل الإفريقي وامتدت من وادي نهر السنغال بالغرب إلى المنحنى الكبير لنهر النيجر بالشرق، وقد اتخذت إحدى دول غرب إفريقيا تسميتها من اسم هذه الدولة نظرا لدورها الحضاري القاري.
وتوجد أطلال إمبراطورية غانا بكمبي صالح بالحوض الشرقي على بعد 60 كم جنوب مدينة تمبدغة. ويؤكد ما كشف عنه من أطلال حتى الآن أن المدينة تتكون من مركزين، المركز الشمالي حيث عرف بمساجده الإثنى عشر بينما عرف المركز الجنوبي بالقلعة حيث كان القصر الملكي محاطا بالتجمعات السكنية، أو كما قيل كانت تنقسم إلى حيين: حي صالح للمسلمين وحي كومبي لغير المسلمين(7).
وكان انطلاق دولة المرابطين في القرن الهجري الخامس أي الحادي عشر الميلادي من موريتانيا. وقد تركت

هذه الدولة الإسلامية العتيدة مظاهر أثرية صالحة للاستغلال في السياحة الثقافية. فما زالت أطلال آودغست، حاضرة الملثمين الأثرية الواقعة في منطقة «الركيز» على بعد 45 كم إلى الشمال الشرقي من مدينة تامشكط في الحوض الغربي ماثلة للعيان بادية للمشاهد (8).

وكذلك من أبرز معالم دولة المرابطين مدينة آزوكي بآدرار التي كانت ملتقى للكثير من الحضارات والثقافات والمبادلات التجارية الجنوبية عبر القرون الوسطى، وقد ذكر المؤرخ البكري أن آزوكي كانت تضم عشرين ألف نخلة في

القرن الخامس الهجري. وتعتبر الآن بلدة آزوكي كمدينة تاريخية وسياحية وذاكرة تاريخية مغاربية مشتركة لحضارة دول المغرب العربي ضاربة في التاريخ والتنوع، وهذا الموقع هو إرث مشترك بين المغرب وموريتانيا والتراث الأندلسي والجزائر. وقد أسسها المرابطي أبوبكر بن عمر في القرن الخامس الهجري، قبل اتخاذ مدينة مراكش عاصمة للمرابطين من قبل يوسف بن تاشفين، عندما تم تبني الحركة المرابطية الإصلاحية في المغرب واستتباب حكمهم بمراكش. ومن أهم أعلامها الكبار القاضي محمد بن مراد الحضرمي صاحب كتاب الإشارة في تدبير الإمارة الذي يوجد ضريحه الآن في آزوكي كمزار ديني كبير(9).

وفي عهد الإمارات الحسانية هنالك أكثر من معلم سياحي ثقافي نذكر منه هضبة انكادي تقع في الجهة الشمالية من ضواحي مدينة النعمة عاصمة ولاية الحوض الشرقي، وهي الأكثر شهرة بين هضاب ومرتفعات المنطقة. وكانت هضبة انكادي إحدى أهم مضارب إمارة أولاد امبارك، وخاصة «حلة» أهل اعمر ولد اعل، حيث كانت تضرب خيمة الأمير خطري على ر أس الهضبة. وقد ذكرها الأديب صاحب الأنفة والذكر: الكفية ولد بوسيف حين أراد أن يعبر عن أسفه وحسرته من تقلبات الزمن بعد أن سلبت إمارة مشظوف سلطان قبيلته.

ولعل مزارات شهداء المقاومة ضد المستعمر تعتبر موطنا للذاكرة الجمعية الموريتانية، ومن أمثلتها ضريح الأمير بكار ولد اسويد أحمد في رأس الفيل بمنطقة أفلّه بين العصابة والحوض الشرقي. وكذلك ضريح الأمير الشهيد سيدي أحمد ولد أحمد ولد عيده في وديان الخروب بتيرس.

- في الجانب الثقافي

نجد الكثير من التراث المادي وغير المادي، ومن أمثلته المدن القديمة المصنفة من طرف اليونسكو كتراث عالمي، وهي: ولاته بولاية الحوض الشرقي، وتيشيت بولاية تكانت، وودان وشنقيط بولاية آدرار. ولكل من هذه المدن إسهامها الثقافي وتميزها التراثي، مع أنها تزخر كلها بالمخطوطات الثمينة والمعمار التقليدي والمآذن الشاهدة على العبق التاريخي، فإن في ولاتة تراثا معماريا وزخرفة وفنا في الرسم يميزها عن غيرها. وفي تيشيت كنوز المخطوطات الموريتانية والمغاربية والأندلسية، وفي ودان شارع الأربعين الذي تطل عليه منازل أربعين عالما ودانيا، أما شنقيط التي أعطت اسمها لهذا القطر، واشتهرت بها ساكنة الفضاء الصحراوي كله في المشرق، فصار الشنقيطي والشناقطة علما معروفا وتسمية مشهورة، توحي بالحفظ الواسع والمدارك العلمية العميقة والفهم الصائب والتمسك بلغة القرآن، فهي حاضرة العلم والمخطوطات والمعمار الإسلامي المتميز.

ولا بد من وقفة خاصة بودان التي توجد قربها عين الصحراء، وهي عبارة عن تشكيلة من الظواهر الطبيعية المثيرة والتي تعرف أيضا باسم (قلب الريشات) وهي حفر دائرية بالرمال يصل قطرها إلى ثلاثين ميلا، وحولها هالة لونها أزرق. ويفسر العلماء هذا بأن نيزكا عملاقا سقط من الفضاء الخارجي فاصطدم بالصخور الموجودة بالرمال فكون هذه الظاهرة الفريدة من نوعها وهذه الحفرة تظهر عن بعد كأنها عين إنسان.

ولا يقتصر العمق الثقافي والحضور العلمي على هذه المدن الأربعة بل إن مدنا مثل بوتلميت في الترارزة وتجكجة بتكانت والنعمة بالحوض الشرقي والعيون بالحوض بالغربي وأوجفت وأطار بآدرار تزخر بالمكتبات العريقة والمعالم الأثرية الأخاذة والمناظر الطبيعية الجذابة. فعلى سبيل المثال لا الحصر توجد في بوتلميت مكتبة من أغنى وأوسع وأعرق المكتبات في منطقة الغرب الإفريقي والمغرب العربي، وقد أسسها الشيخ سيديا الكبير (توفي 1284هـ/1867م)، واستجلب لها الكتب وسافر للحج ومر بمراكش بالمغرب واشترى منها الكتب المخطوطة النادرة.

الموكب الثقافي
مجلة - علمية
نصف سنوية - تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم
CNECS

وقد طورها بعده حفيده بابه ولد الشيخ سيديا (توفي 1342هـ/ 1924م) وزادها حتى صارت من أغنى المكتبات. ومن بين كنوزها النسخة الوحيدة من كتاب «الضروري في النحو» لابن رشد الأندلسي المتوفرة في مكتبة آل الشيخ سيديا. وهذا ليس إلا مثالا من أمثلة كثيرة، يصعب تعدادها والوقوف عليها في هذا الحيز المحدود، فلا يخفى أن المعطى التراثي حاضر بقوة في جميع الحواضر الموريتانية، ويتجلى في أكثر من معنى.

التراث غير المادي

أما التراث الثقافي غير المادي فحاضر بقوة في موريتانيا: ومن أبرز أمثلته وأكثرها دلالة أن منظمة اليونسكو صنفت «التهيدين» تراثا عالميا ينبغي الحافظ عليه وصونه وذلك ما أكدته في مؤتمرها المنعقد في مدينة بالي بإندونيسيا سنة 2011.

و«التهيدين» ملاحم أدبية تحكي بطولات وشجاعة وقيم المجتمع الموريتاني وخصوصا الأمراء والنبلاء، وهي ملاحم في شكل نصوص من الشعر الشعبي الحساني منظومة في قوالب عروضية خاصة، وتتم تأديتها في مقامات موسيقية خاصة ولها إلقاء غنائي متميز. وقد اشتهر التهيدين مع منتصف القرن السابع عشر الميلادي تقريبا، وهو يشكل في حد ذاته، فضلا عن الموسيقى الموريتانية التقليدية، رافدا هاما للسياحة الثقافية، لما لها من عمق تراثي وعطاء فولكلوري وتميز فني. ولا شك أن الفرق المسرحية والموسيقية تعد اليوم من أكثر المجموعات القادرة على إقامة النشاطات الثقافية المتنوعة المرتبطة بالتنشيط السياحي الثقافي، ويمثل التراث الأدبي والاجتماعي والموسيقي مادة ثقافية سياحية حية ومعبرة عن واقع البلاد، ويمكن التعريف بهذا التراث من خلال تنظيم المسرحيات والحفلات الموسيقية والعروض الغنائية في الأماكن التاريخية والأثرية.

وتمتاز موريتانيا بجانب تراثي له وجهه السياحي الهام وهو الطرق والمسارات والدروب الأثرية المحلية والإقليمية التي كانت مكرسة لاستخدامات الحجاج وقوافل التجار، وبكل ما كان عليها من آبار ومنازل وشواهد وأعلام، ولعل في تثمينها وإحيائها تعزيزا للسياحة الثقافية، مثل المسارات الدينية، ومسارات الرحالة المشهورين، وطرق الحج والقوافل القديمة (الطريق اللمتوني مثلا)، ويمكن إنشاء مسارات سياحية جديدة في كل المناطق، سواء أكانت سيراً على الأقدام أو الإبل أم باستخدام السيارات، ويهدف إحياء المسارات إلى توسيع الدائرة السياحية لكي تشمل مناطق متنوعة تحتوي على مقومات سياحية ثقافية مختلفة، وقادرة على المساهمة في عملية التطوير السياحي.

رافعات لا بد منها:

وهناك ثلاث رافعات لا بد من تفعيلها في أية سياسة تعنى بالسياحة الثقافية، ألا وهي:

- دور النوادي الثقافية: دور الأندية الثقافية في هذا المضمار يشكل رافداً ناجعاً لتنشيط السياحة الثقافية سواء بالنسبة للسياحة الداخلية أو الوافدة، وتستطيع هذه النوادي تقديم العروض والنشاطات الفنية التي تجتذب السائح، من خلال ما تقوم به من نشاطات ثقافية متنوعه كالمحاضرات والحفلات الموسيقية.

- المعارض: تلعب معارض صور المواقع السياحية دوراً كبيراً في التعريف بها، وخلق التفاعل مع المشاهد الذي يأخذ القرار بالسفر بناء على القناعات والقيم التي يحملها، والتي تدفعه إلى اختيار الجهة المطلوبة للسفر وتقوم إقامة المعارض الخاصة بالحرف والصناعات اليدوية ومعارض الفنون التشكيلية ومعارض الأزياء والمأكولات الشعبية بدور كبير في التعريف بالتراث الثقافي.

- المؤتمرات: لا بد لتفعيل السياحة الثقافية من إقامة المؤتمرات والحلقات الدراسية، وحضور المهرجانات التاريخية والأعياد الدينية والذكريات الشعبية الفلكلورية والفنية وكذلك من خلال زيارات الوفود والزيارات الجماعية، وتهتم الدول بعقد المؤتمرات والندوات واللقاءات العلمية لكونها تشكل مصدر ترويج مهما ودعاية سياحية للبلد.

خاتمة وتوصيات:

السياحة الثقافية في موريتانيا يمكن أن تشكل ميزة تنافسية على مستوى المنطقة (المغرب العربي ومنطقة الساحل الإفريقي)، ويجب العمل على تطويرها لاستغلال آثارها الاقتصادية والاجتماعية، فهي عنصر جوهري للسياحة الجديدة ومحو ر من محاور

تنوع الوجهات السياحية.

ومن المعلوم أن السياحة عموما والسياحة الثقافية خصوصا ظاهرة عالمية تطورت وازدهرت في بداية القرن العشرين، مع استقرار الوضع الدولي، حيث أدى إلى زيادة الدخل الفردي وتحسن المستوى التعليمي وارتفاع الوعي الشعبي للتنقل من أجل الراحة والاستجمام وزيادة المعارف والوقوف على تراث الشعوب ومساهمتها في العطاء العلمي.

بهذا أصبحت السياحة الثقافية صناعة متطورة. وتساهم السياحة في التنمية الاقتصادية بنسبة كبيرة، من حيث زيادة المداخيل بالعملة الصعبة وتحسين وضعية ميزان المدفوعات، وتوفير مناصب الشغل للكثير من فئات المجتمع سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، بالإضافة إلى مساهمتها في الناتج المحلي الإجمالي للكثير من دول العالم.

ولعل ضعف القطاع السياحي الثقافي في الاقتصاد الموريتاني يعود إلى إهماله في مختلف برامج التنمية الاقتصادية واعتباره غير مهم مقارنة بالقطاعات الأخرى في الاقتصاد.

ولأن السياحة الثقافية مصدر دائم ولأن بلادنا حباها الله بنصيب وافر من الكنوز التراثية، ولكي نستفيد من ذلك بشكل أكبر؛ فإن الأمر يتطلب تسطير استراتيجية وطنية لترقية السياحة الثقافية وتحسين وجه موريتانيا في خطة تأخذ بعين الاعتبار معالجة العراقيل التي يواجهها المستثمر الوطني في القطاع.

وفي هذا السياق ينبغي:

- إصدار المزيد من التحفيزات الاستثمارية والإعفاءات الضريبية في هذا القطاع؛
- تشجيع التعاون والشراكة في المجال السياحي الثقافي، وذلك من خلال مراجعة قوانين الاستثمار وجعلها أكثر مرونة لجلب المستثمرين، والاهتمام بالبنى التحتية وتحديثها خصوصا الطرق، والإقامات الفندقية...الخ؛
- تحسين الخدمات السياحية، وذلك بتدريب وتكوين العاملين في هذا القطاع والاهتمام باللغات الأجنبية؛
- توفير وسائل النقل والمواصلات المريحة، لتسهيل تنقل السياح بين المناطق السياحية الثقافية المختلفة، خاصة الجوية منها؛
- الاهتمام بالترويج السياحي الثقافي سواء السمعي أو المرئي أو المكتوب للتعريف بالمناطق السياحية، وإتاحة استخدام التكنولوجيا في مختلف المجالات السياحية والفندقية؛
- إرساء ثقافة سياحية لدى المجتمع الموريتاني لتشجيع السياحة وإيجاد توافق بين السواح المحليين والأجانب؛
- الاستفادة من تجارب الدول الرائدة في المجال السياحي خاصة الدول المجاورة.

المراجع :

(1)- مروان السكر، مختارات من الاقتصاد السياحي، مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 1999، ص 3.

(2)- جليلة حسن حسنين، اقتصاديات السياحة، منشورات جامعة الإسكندرية، 2003، ص 10.

(3)- Walter Hunziker, Le tourisme, caractéristiques principales, éditions Gurten, Berne,1992, p76.

(4)- The World Tourism Organization, Collection of Tourism Expenditure Statistics, Technical Manual No 2, Madrid, 1995, p 1.

(5)- جميل نسيمة: السياحة الثقافية وتثمين التراث من خلال البرامج التلفزيونية في الجزائر، كلية العلوم الاجتماعية، تخصص علوم الإعلام والاتصال، مذكرة لنيل شهادة ماجستير جامعة وهران، 2009-2010، ص 36 وما بعدها.

(6)- عامر عيساني، الأهمية الاقتصادية لتنمية السياحة المستدامة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة باتنة، 2010، ص ص16-17.

(7)- Sophie Berthier, Recherches archeologiques sur la capitale de l›empire de Ghana: Etude d›un secteur d›habitat a Koumbi Saleh, Mauritanie. Campagnes II-III-IV-V, (Archaeological Reports International Series) Paperback – 31 Dec. 1997.

(8)- الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين: دراسة لتاريخ موريتانيا وتفاعلها مع محيطها الاقليمي خلال العصر الوسيط من منتصف القرن 2 هـ، دار المدار الإسلامي، 2007، في عدة أماكن من هذه الدراسة المفيدة.

(9)- د. محمد سالم إديدبي: موريتانيا- ثراء أمة، المنار، نواكشوط، 2011.

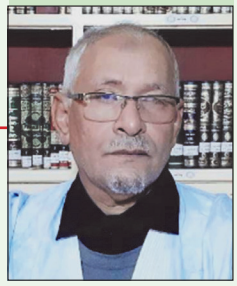

د. ببهاء بديوه

كوكب المعجم التاريخي للغة العربية يشق مساره عبر سبعة عشر قرنا

من المعروف أن الثقافة العربية قد عرفت تأليف المعاجم في وقت مبكر من تاريخ الحضارة الإنسانية، لكنها لم تعرف المعاجم التاريخية، وإن لم تغب عن فكر اللغويين تلك المناحي المتعلقة بأصول الألفاظ واختلاف معاني بعضها، ما بين العصور مثل العصر الجاهلي والإسلامي، وتوسع الدلالة من المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي.

غير أن كل ذلك لم يصل إلى رؤية شاملة لتغير الألفاظ وتطور دلالاتها عبر العصور. وربما يكون ذلك راجعا إلى أن الدرس اللغوي عند العرب لم يكن يتجه وجهة تدفع إلى التأريخ لتطور اللغة؛ وإنما كان يتجه وجهة معيارية؛ أي وصف النموذج المعيار للاستعمال اللغوي في سياق محدد زمانيا ومكانيا.

لقد نشأت فكرة المعجم التاريخي لدى علماء اللغة الألمان في القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي كانت تغلب فيه النزعة التاريخية على مناهج العلوم الإنسانية.

وكانت تراود هؤلاء العلماء فكرة يرومون إثباتها؛ وهي أن اللهجات الألمانية ترجع إلى أصل لغوي واحد، وكان الدافع إلى ذلك هو دعم الطموح الرامي إلى توحيد المناطق الألمانية في دولة واحدة، وقد استغرق إنجاز المعجم الألماني الذي اكتمل سنة 1961 ثمانين عاما.

أما المعجم التاريخي للغة الإنجليزية، فقد بدأ العمل عليه سنة 1857، ونشرت أول طبعة له في عشر مجلدات سنة 1933 ونشرت الطبعة الثانية في عشرين مجلدا سنة 1989.

وقد تأخر ظهور المعجم التاريخي للغة الفرنسية حتى 1992 حيث ظهرت طبعته الأولى.

وبعد استقلال الدول العربية وتأسيس المجامع اللغوية بدأت فكرة إنشاء المعجم التاريخي تراود أذهان المفكرين العرب.

وقد نصت المادة الثانية من أهداف مجمع فؤاد الأول للغة العربية، الذي أصبح مجمع اللغة العربية بالقاهرة «أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية». وكان من أعضائه الأوائل المستشرق الألماني أوغيست فيشر (1865-1949) الذي شرع في العمل على تأليف معجم عربي حديث معتمدا على مدونة يرجع معظمها إلى فترة تبدأ من العصر الجاهلي وتنتهي عند نهاية القرن الثالث الهجري. وقد عرض فيشر فكرة معجمه على مجمع فؤاد الأول للغة العربية فنالت الاستحسان أملا في أن تكون تجسيدا للمادة الثانية من أهداف المجمع، وقد زوده المجمع بالنفقات والمساعدين اللغويين، ولكن المشروع توقف بعدما اندلعت الحرب العالمية الثانية؛ حيث عاد فيشر إلى ألمانيا ولم يستطع العودة نتيجة المرض الذي أقعده، وعندما مات كانت جذاذاته قد تفرقت بين مصر وألمانيا وضاع منها الكثير، ولم يستطع مجمع اللغة العربية بالقاهرة أن يعثر من هذا المشروع إلا على مقدمة من أربع وثلاثين صفحة، ومجموعة من المواد في ثلاث وخمسين صفحة تبدأ من أول حرف الهمزة وتنتهي عند (أبد). وقد نشرها مجمع اللغة العربية سنة 1967 في كتاب عنوانه: أ. فيشر «المعجم التاريخي القسم الأول من أول حرف الهمزة إلى أبد».

بعد ذلك اتجهت جهود مجمع اللغة إلى وضع المعجم الوسيط الذي صدر 1960، والشروع في إنجاز المعجم الكبير الذي صدر الجزء الأول منه 1970، ثم توالى صدور أجزائه في السنوات اللاحقة.

لكن المعجم الكبير، كما هو مقرر في مقدمته، ليس معجما تاريخيا «لأن المعجم التاريخي يحتاج إلى أعمال تمهيدية لم يؤخذ بها بعد»

وكانت المحاولة الثانية هي المشروع التونسي للمعجم التاريخي العربي بمبادرة من كلية الآداب ومركز الدراسات الاقتصادية والاجتماعية وجمعية المعجمية العربية. وقد أوصت الندوة الدولية حول موضوع المعجم التاريخي في تونس 1989 بضرورة البدء في وضع معجم تاريخي، وبدأ العمل في المشروع بتمويل من الحكومة التونسية، وجمع العاملون في المشروع شواهد من تسعين شاعرا جاهليا يرجع تاريخهم إلى الفترة الممتدة ما بين 200م و 606م، وبلغت حصيلة ما أنجزوه (58023) ثمانية وخمسين ألفا وثلاثة وعشرين جذاذة. لكن المشروع تعثر بسبب تقطع التمويل وعدم تفرغ العاملين فيه.

ظلت فكرة المعجم التاريخي للغة العربية تسكن أذهان الباحثين واللغويين إلى أن وافق اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية على مشروع إعداد المعجم التاريخي، وكُلِّفت لجنة بوضع خطة التنفيذ وتدريب العاملين في المشروع، وقد قدمت هذه الخطة في مؤتمر «المعجم التاريخي للغة العربية» في القاهرة عام 2006، وعقد اتحاد المجامع ندوة حول الموضوع بالشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة، استضافها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، الذي أعلن في تلك الندوة عن تبرعه بتكاليف المشروع برمته، وقد بني مقر للمشروع في القاهرة، وشكل المجلس العلمي المكلف بإعداد مصادر المدونة. وفي هذه الأثناء جاءت مبادرة المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في قطر سنة 2013 بإنشاء معجم الدوحة التاريخي. وقد مكنت تلك المبادرة سنة 2018 من إنجاز نموذج رقمي خاص بتاريخ استعمال الكلمات العربية من العصر الجاهلي إلى نهاية القرن الثاني الهجري.

لكن اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية ظل يعمل على إطلاق المشروع

بصورة متكاملة شاملة لمدونة اللغة العربية عبر العصور، وظل المشروع يتلقى الدعم الثابت والمستمر من صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة، وراعي الاتحاد، ويواكب إسناده تقنيا وماليا وعلميا، من خلال مجمع الشارقة للغة العربية، إلى أن تهيأت الظروف واكتمل الإعداد لانطلاق العمل بفرق التحرير المعجمي على مستوى 10 مجامع عربية، بينها مجلس اللسان العربي بموريتانيا، حيث باشرت عملها في 20 يناير 2020 بعد سلسلة من التدريبات أقيمت لفرق المعجم في مختلف البلدان العربية، وكانت موريتانيا ثاني دولة تستفيد من هذه التدريبات. وقد عمل في المشروع أكثر من 300 باحث ومختص، عبر منصة رقمية أنشأها مجمع الشارقة للغة العربية، ويشرف عليها فنيا مهندسون يعملون في مجمع الشارقة.

تقوم الإدارة العلمية والتنفيذية بتحديد الحجم الإجمالي للعمل، ثم توزعه على المجامع المشاركة. وبعد إنجازه من قبل فرق التحرير المعجمية ومراجعته من قبل المقررين العامين، تعكف لجان مركزية في القاهرة والشارقة على إعادة تدقيقه ومراجعته، وبعد المصادقة من قبل الإدارة العلمية عليه يطبع في الشارقة في نشرة أولية، يراجعها مرة أخرى مختصون من كبار العلماء، قصد التأكد من سلامة الموادّ واكتمالها، ليعود إلى اللجنة العلمية للمعجم ومن تستعين به من الخبراء للنظر في ملاحظات المراجعين واستكمال ما نبهت إليه من نقص في عناصره، ثم يرسل كرة أخرى إلى اللجنة التنفيذية في الشارقة ليطبع في نسخة ورقيّة تجريبيّة ثم يدقق من جديد، ليكون جاهزاً للطباعة والنشر والتوزيع.

وقد تمخض العمل في مرحلته الأولى عن الإعلان في احتفالية ترأسها صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان القاسمي في الشارقة يوم الخميس 19 ربيع الأول 1442هـ/ 05 نوفمبر 2020، عن صدور الطبعة التجريبية من المجلدات الثمانية الأولى من المعجم؛ وهي مجلدات خاصة بثلاثة أحرف (ء-ب-ت).

ساهم مجلس اللسان العربي بموريتانيا بنشاط في هذا الإنجاز. وقد تشكلت لجان العمل الموريتانية في البداية من 56 عضوا أي ما يمثل أكثر من سدس مجموع العاملين في المعجم، غير أن أعداد الباحثين تناقصت أثناء الطريق لأسباب شتى، دون أن ينال ذلك من تقدير إدارة المعجم للأداء النوعي والكمي العام للفريق الموريتاني الذي صنف ضمن المتصدرين من حيث الإنجاز. وكان من شواهد تقدير إدارة المعجم لعطاء الفريق الموريتاني أن استعانت بعشرة من أعضاء الفريق في مهمات التدقيق المركزي للجذور المحررة من قبل اللجان المعجمية العربية الأخرى.

وتتلخص مساهمة فريق موريتانيا في المجلدات الثمانية الأولى من المعجم في إنجاز أكثر من 760 جذرا تضمنت ما يربو على 2500 مدخل وزهاء 4000 بطاقة معنى و6000 بطاقة شاهد.

وبهذا الإنجاز تتحقق أول خطوة عملية في اتجاه تجسيد ذلك الحلم الذي ظل يراود الباحثين والعلماء من عشاق اللغة العربية منذ بدايات القرن الماضي؛ ألا وهو إنجاز هذا المعجم الذي سيكون ديوانا يضمّ جميع ألفاظ اللغة العربية، كاشفا تطوّر مبانيها ودلالاتها عبرَ العصور، من خلال الشّواهد الموثقة في مصادرها توثيقا علميا؛ ليكون مرجعا لتاريخ اللغة العربيّة وحضارتها عبر الزمان والمكان.

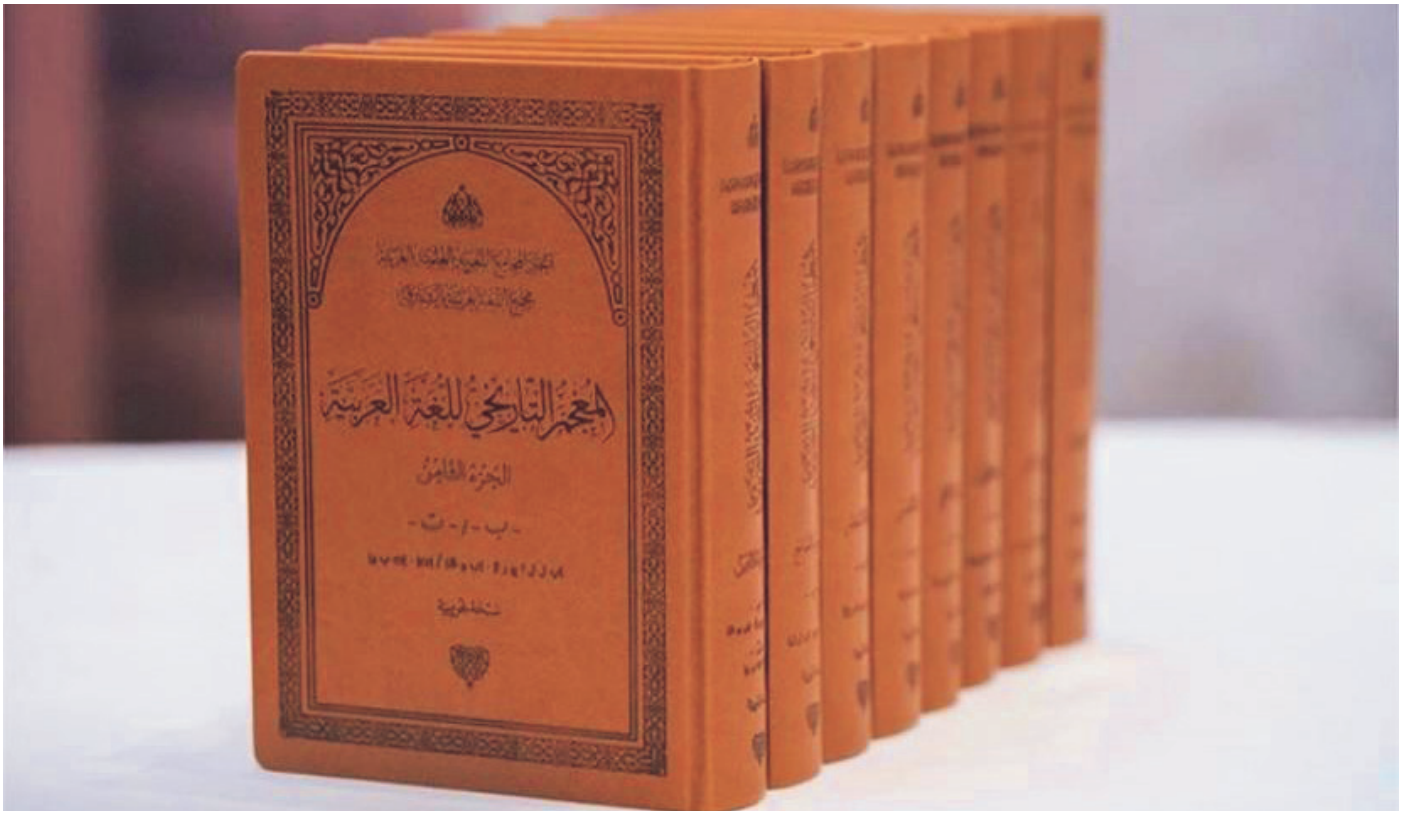

شيخنا سيدي عثمان
أستاذ بجامعة نواكشوط العصرية

مسابقات الاكتتاب في الوظيفة العمومية في موريتانيا

قواعد وإجراءات

تقديم

يقصد بالوظيفة العمومية مجموعة من الأعباء والمسؤوليات تتسم بالديمومة والاستقرار محددة من طرف سلطة مختصة لضمان سير المرافق العامة، أو لتحقيق هدف معين أو جزء من هدف معين يتصل بالصالح العام أو بخدمة جمهور مرتبط بمرفق عام، ويقوم بهذه الوظيفة العمومية فرد تتوافر فيه صفات معينة تؤهله لشغل الوظيفة، ويخضع فيها لتشريعات ومساطر إجرائية وتنظيمية غايتها تحسين مردودية الأفراد المدنيين العاملين في مختلف مفاصل الإدارة العمومية، وفقا لضوابط وقواعد محددة سلفا، تقاس بها مؤشرات نجاعة وسلامة النظم المستخدمة للاكتتاب في الوظائف العمومية.

لذلك حرصت السلطات العمومية الموريتانية على سن وإصدار التشريعات والنظم والإجراءات والآليات الإدارية التي من شأنها أن توفر القواعد السليمة لاختيار وتسيير الموظفين، وقد عملت من خلال تلك التشريعات والنظم على تحقيق المهام الأساسية التالية:

1. مبدأ حماية حق كافة المواطنين في تقلد المهام والوظائف العمومية دون شروط أخرى سوى تلك التي يحددها القانون[1] .
2. ضمان تحقيق المساواة بين جميع المواطنين في الولوج إلى الوظائف العمومية؛ طبقا لشروط موضوعية عامة نافذة وعادلة وصارمة.
3. سن القوانين التشريعية والمراسيم التطبيقية واللوائح التنظيمية والتعميمات المختلفة التي من شأنها أن تحدد وتضبط سير وقواعد وإجراءات التوظيف في المرفق العمومي والمسار الوظيفي للموظف العمومي
4. إنشاء وتنظيم آليات إدارية مختصة بالإشراف على تنظيم إجراءات الولوج، مع توفير الجودة والعدالة والحياد والشفافية والمهنية.

ونحاول في هذه العجالة استعراض بعض الجوانب المتعلقة بولوج الوظائف العمومية في موريتانيا، مع التركيز، بالدرجة الأولى على القواعد والشروط المحددة للولوج وإجراءاته التنظيمية وترتيباته التنفيذية، بالإضافة إلى استعراض أهم التحديات والصعوبات الموضوعية التي تواجه عمليات الانتقاء والإصلاحات التي تم إدخالها لتحصين الأداء من الشوائب المخلة، ولتحسين وسائل انتقاء الموظف الأكفأ والأحق.

أولا: قواعد وشروط الولوج إلى الوظيفة العمومية

حددت النصوص التشريعية المعمول بها[2] شروطا عامة لولوج مختلف الوظائف العمومية، حيث نص النظام الأساسي للموظفين والوكلاء العقدويين للدولة، على ستة شروط[3] أوجب توفرها مجتمعة في كل من يتقدم للتوظيف في الوظيفة العمومية، وذلك طبقا للترتيب التالي:

1: أن يكون المترشح موريتاني الجنسية

حيث حرص المشرع الموريتاني على قصر الوظائف العامة للدولة على مواطنيها الحاملين لجنسيتها حرصا منها على توفير الوظائف لمواطنيها، وسلامة البلاد وأمنها، واستثنى المشرع وظائف التعاون التقني والعلمي والتعليم التي قد تحتاج الدولة فيها إلى خبرات أجنبية في إطار العلاقات الثنائية أو متعددة الأطراف، إلا أن القانون ربط إمكانية ذلك بحالة عدم وجود موريتانيين مؤهلين لشغل تلك الوظائف العامة، واشترط كذلك ألا تتعلق تلك الوظائف بممارسة السيادة وألا تتضمن أية مشاركة بصفة مباشرة أو غير مباشرة في ممارسة السلطة العمومية[4] .

وطبقا لهذا الشرط يتعين على المترشح للاكتتاب في الوظيفة الاستظهار بما يثبت أنه يتمتع بالجنسية الموريتانية، ولم يفصل القانون بين الجنسية الأصلية والجنسية المكتسبة.

2. أن يتمتع المترشح بحقوقه المدنية

كما اشترط المشرع، أيضا، فيمن يتقدم لنيل وظيفة عمومية، أن يتمتع بحقوقه المدنية ويتصف بحسن السيرة والأخلاق، والمقصود بالتمتع بالحقوق المدنية هو مجموع الحقوق التي منحت بموجب القانون من قبل الدولة لجميع المواطنين في إطار سعيها لتحقيق مصالحهم مثل حق التملك والعمل والتنقل.. الخ.

ومعلوم أن عدم التمتع بهذه الحقوق يعود إلى تعرض الشخص للعقوبات المنصوص عليها بأحكام القانون.

ومن أجل التثبت من تمتع المترشح بحقوقه يطلب منه، عند الاقتضاء، الإدلاء بشهادة تبريز من الجهات المختصة.

ولا يشكل عدم التمتع بالحقوق المدنية أو فقدان الجنسية مانعا دائما بل يزول

1. المادة الثانية عشرة من دستور 1991 وتعديلاته
2. القانون رقم 93/ 09 الصادر بتاريخ 18 يناير 1993، المتضمن للنظام الأساسي للموظفين والوكلاء العقدويين للدولة
3. حددت المادة السادسة من القانون خمسة شروط ثم أضاف القانون شرطا آخر في مادته 29 حين حصر مستوى الاكتتاب بالنسبة للموظفين في ثلاثة مستويات لا بد لكل منها من الحصول على شهادة محددة في تحديد السلك الذي يترشح له.
4. الفقرة 2 من المادة الخامسة من النظام الأساسي للموظفين

المنع بزوال المانع[5].

3. أن تكون وضعية المترشح شرعية اتجاه الاكتتاب في الجيش

واشترط كذلك أن يكون المترشح لوظيفة عمومية في وضعية شرعية اتجاه الاكتتاب في الجيش، ويتعلق الامر بالخدمة العسكرية، بحيث يتقدم المترشح بما يثبت شرعية وضعيته اتجاه الخدمة الوطنية التي لا تخلو من واحدة من ثلاث وضعيات قانونية، إما وضعية أداء الخدمة الوطنية أو وضعية الإعفاء من الخدمة الوطنية، أو وضعية تأجيل الخدمة الوطنية، غير أن العمل بهذه الخدمة موضوع الشرط قد توقف منذ عقود، وجمد أيضا شرط إثبات الوفاء بها للمترشح في المسابقات باعتبار الحالة العامة تدخل ضمن الوضعية الثالثة، رغم أنه ما زال شرطها مثبتا ضمن النظام الأساسي للموظفين[6] .

4. أن يكون المترشح مؤهلا بدنيا وعقليا

واشترط القانون على المترشح أن يستوفي المتطلبات البدنية والعقلية اللازمة للوظائف التي يترشح لها، وهي من الشروط اللازمة للاستمرار في الوظيفة العمومية وليست شرطا لمجرد شغلها، ولهذا الاعتبار يتعين على المترشح الاستظهار بشهادة طبية صادرة من طبيب مختص محلف، تثبت خلو المترشح من أي مرض مخل بأهليته للقيام بالوظيفة المترشح لها، وقد وضع المشرع اعتبارات للأشخاص ذوي الإعاقة حيث سمح لغالبيتهم بالولوج إلى وظائف متعددة حدد قائمتها الأمر القانوني رقم 2006/ 043 بتاريخ 23 / نوفمبر 2006 المتعلق بترقية الأشخاص ذوي الإعاقة، والمرسوم المطبق له رقم 2015 /062 بتاريخ 06/ ابريل 2015 الذي صنف الإعاقات إلى فئات بحسب قابلية ولوج كل وظيفة على حدة وحدد في مرسوم شروطا وإجراءات تطبيقية لهذا القانون من شأنها أن تعزز من فرص ولوج ذوي الإعاقة إلى الوظائف العمومية.

5. أن يكون المترشح متمتعا بالسن القانونية

وحدد النظام الأساسي سن ولوج الوظيفة العمومية؛ حيث ربط النظام العام للموظفين دخول الوظيفة العمومية بثمانية عشر سنة، كحد أدنى، أي سن الأهلية المدنية، وأربعين سنة كحد أعلى، عند الاكتتاب، ويستثنى من هذا التحديد العمري بعض الأسلاك التي تحكمها قوانين ونظم خاصة مثل أسلاك القضاة ومحكمة الحسابات ومنتسبي الشرطة الوطنية ومختلف الأسلاك العسكرية والحماية المدنية.

6: أن يكون المترشح متوفرا على المؤهل العلمي المطلوب

كما ألزم المترشح لوظيفة عمومية بأن يثبت حصوله على المؤهل العلمي المطلوب للالتحاق بالوظيفة المعروضة، والمتمثل في الشهادات أو التكوين المتخصص. وذلك طبقا للتحديد الذي تم بموجبه تصنيف مستويات الموظفين طبقا للأسلاك التي ينتمون إليها والتي هي محددة طبقا لمستوى الشهادات التي يتم الاكتتاب بها، حيث يتوزع الموظفون طبقا لذلك إلى ثلاث فئات معرفة حسب التسلسل التنازلي بالأحرف (أ) و(ب) و(جـ)، ويقابل الحد الأدنى للاكتتاب في الفئة (أ) شهادة السلك الأول من التعليم العالي، وتجزئ النظم الخاصة هذه الفئة إلى درجات تبدأ من تلك الشهادة وترتقي إلى أعلى مستويات التحصيل العلمي. أما فئة (ب) فيقابل الاكتتاب فيها مستوى البكالوريا، في حين يقابل الاكتتاب في فئة (جـ) مستوى شهادة ختم الدروس الإعدادية[7] .

ثانيا: اللجنة الوطنية للمسابقات

نص النظام الأساسي للموظفين والوكلاء العقدويين للدولة على أن الطريق

5. انظر المادة 6 من المرسوم رقم 006 / 95 بتاريخ 7 فبراير 1995 المتعلق بشروط وإجراءات إعادة وتعيين بعض الموظفين في الوظيفة العمومية
6. انظر المادة 6 من النظام الأساسي للموظفين
7. المادة 29 من النظام الاساسي

القانونية العادية لاكتتاب الموظفين هي المسابقة، وأن كل اكتتاب لا يتم عبر المسابقة لاغ وعديم المفعول، ويمكن سحبه في أي وقت[8] ، ولم يستثن القانون من هذا الشرط إلا حالات ثلاث:

- عند تشكل أصلي للسلك.
- أو عند إلغائه ودمج موظفيه في سلك آخر.
- أو لتشجيع الترقية المهنية.

ثم أناط مسؤولية تنظيم هذه المسابقات بلجنة وطنية للمسابقات نص على أنها تنشأ لهذا الغرض ووصفها بأنها سلطة إدارية مستقلة تتبع لسلطة الوزير الأول.

وبالنظر إلى الآليات الإدارية والإجراءات التنظيمية المتبعة في المنطقة لتنظيم عمليات الاكتتاب والولوج إلى الوظائف العمومية، فإن اللجنة الوطنية للمسابقات تعتبر فريدة في عموم دول الجوار من حيث طبيعتها كسلطة إدارية مستقلة ومن حيث موقعها في السلم الإداري وقواعد عملها، مما يعبر عن إرادة واضحة لدى السلطات العليا في البلاد وعن استمرار رغبتها في تعزيز الشفافية والاستقلالية والمصداقية في مجال الاكتتاب في الوظائف العمومية، مما يضع على عاتق اللجنة الوطنية للمسابقات مسؤوليات جسيمة وتحديات متزايدة تتطلب منها - رغم صعوبة المهمة - التحلي بما يكفي من الاستقلالية والصرامة والشفافية والعدالة والمهنية..

وقد مر تنظيم هذه اللجنة وقواعد عملها بعدة مراحل وخضعت لتغييرات وإصلاحات مختلفة من حيث البنية الإدارية والتنظيمية ومن حيث، المهام والصلاحيات، وكان آخرها المرسوم رقم 2014/ 060 بتاريخ 13 مايو 2014، الذي أعاد تنظيمها وسيرها وحدد مهمتها العامة بأنها مراعاة شفافية مسابقات النفاذ إلى الوظائف العمومية، من خلال تعيين لجان التحكيم، واستقبال ومعالجة تظلمات المترشحين وإجازة النتائج المعلنة من طرف لجان التحكيم، وما تزال هناك حاجة لمزيد من الإصلاحات والتحسينات ينبغي إدخالها.

ثالثا: مسار مسابقات الاكتتاب في الوظيفة العمومية

تفتح مسابقات الاكتتاب في الوظيفة العمومية بموجب مقرر مشترك بين الوزير المكلف بالوظيفة العمومية ووزير القطاع المستفيد من الاكتتاب، بالنسبة للأسلاك غير الوزارية البينية اما في حالة الأسلاك البينية فيصدر المقرر عن الوزير المكلف بالوظيفة العمومية، بعد موافقة الوزير المكلف بالمالية على تخصيص الاعتمادات المالية اللازمة للاكتتاب محل المسابقة.

تبلغ اللجنة الوطنية للمسابقات من طرف وزير الوظيفة العمومية بناء على اقتراح من وزير القطاع المستفيد أو الهيئة المستفيدة من الاكتتاب، بعدئذ تشرع اللجنة في إجراءات تنظيم المسابقة، بدءا بتحديد طريقة الانتقاء المقررة، ثم بإصدار إعلان للمسابقة يتضمن طبيعة المسابقة ومتطلبات وشروط المشاركة فيها والإجراءات المتخذة لتنظيمها، طبقا لمضمون المقرر الوزاري.

ثم تختار لجنة تحكيم من بين الأشخاص المشهود لهم بالاستقامة والكفاءة والخبرة، لتشرف على جميع مراحل تنظيم المسابقة باستقلالية، بدءا بدراسة ملفات الترشح وإعلان لائحة الملفات المقبولة، وإجراء الامتحانات، ووضع أسئلة الاختبارات وتنظيم عمليات الرقابة والتصحيح ويجب ان تتم مختلف مراحل التصحيح باعتماد توهيم أسماء المترشحين وأرقام ترشحهم، مع إخضاع كل ورقة امتحان لمصححين اثنين مختلفين، فإن زاد الفارق بينهما على أربع نقاط يلجأ إلى تصحيح ثالث.

وبعد استكمال التصحيح تخضع نتائجه لمداولات لجنة التحكيم من أجل تحديد قائمة المؤهلين للنجاح قبل رفع التوهيم، ليتم بعد ذلك إعلان اللائحة المؤقتة للناجحين.

تخضع هذه الإجراءات لقواعد محددة بالنظام الأساسي للموظفين[9] ومفصلة بمرسوم[10] جرى تعديله بمرسوم جديد[11] تم بموجبه إدخال إصلاحات بغرض تعزيز الشفافية وحسن التنسيق بين لجان التحكيم واللجنة الوطنية للمسابقات، من بين إصلاحاته:

1. إلغاء الشفهي في المسابقات الكتابية والاكتفاء فيها بمقابلة شخصية للتثبت من صدقية أصول الشهادات، ومدى مطابقة مستوى الأهلية البدنية والعقلية للمادة السادسة من النظام الأساسي للموظفين، ومقتضيات الأمر القانوني المتعلق بالأشخاص ذوي الإعاقة، ولا تسند في هذه المقابلة درجات.
2. إلغاء الترتيب الأبجدي في قائمة المؤهلين للنجاح واعتماد ترتيب التفوق طبقا للنتائج.
3. فتح باب التظلمات أمام المترشحين الذين رفض استلام ملفات ترشحهم، وذلك بموازاة بدء التسجيل للترشح.
4. انتظار أسبوعين بعد إعلان النتائج المؤقتة ليتسنى لغير الناجحين، عند الاقتضاء، التظلم ومعالجة تظلماتهم.

بعد استكمال تلك الإجراءات تعلن لجنة تحكيم المسابقة اللائحة النهائية للناجحين، وتحيلها إلى اللجنة الوطنية للمسابقات.

تنظر اللجنة الوطنية للمسابقات في مختلف ملابسات تنظيم المسابقة، فإن لم تجد بها أخطاء جسيمة تجيز نتائجها وتحيلها إلى وزير الوظيفة العمومية والجهة المستفيدة.

خلاصة

رغم حصول إصلاحات عديدة تم اعتمادهما لتحسين مستوى النفاذ إلى الوظائف العمومية؛ فإن تنظيم المسابقات الوطنية مازال يواجه عدة صعوبات موضوعية، منها على وجه التمثيل:

1. إن اختيار أعضاء لجان التحكيم يتمتعون بما يكفي من الاستقامة والنزاهة والكفاءة والمهنية والجدية والصرامة التي تضمن تنظيم المسابقة بشكل شفاف وعادل ومهني ومتقن، لأمرٌ بالغ الصعوبة وتزداد صعوبته عندما يتعلق الأمر بمحيط يمتاز بضغوط الوساطة والمحسوبية والقبلية والفئوية وغير ذلك ... مما يشكل تحديات متزايدة

8. المادة 51 من النظام الاساسي
9. المواد 55 و56 و57 و58 و59 و60.
10. المرسوم 98 /022 الصادر بتاريخ 19 ابريل 1998 المتعلق بالنظام المشترك للمسابقات الإدارية والامتحانات المهنية.
11. . المرسوم رقم 2020/ 106 الصادر بتاريخ 27 أغشت 2020 المعدل والمكمل لبعض ترتيبات المرسوم 98/ 0022 الصادر بتاريخ 19/ ابريل/ 1998.

تطلب مواجهة مختلف تأثيراتها المحتملة بمزيد من الصرامة واليقظة والحيطة والحذر.

2. لا يزال وضع أسئلة امتحان المسابقات يطرح إشكالية تعدد الجهات التي أصدرت الشهادات المترشح بها، باختلاف برامجها ولغات تدريسها، وتباعد الفترات الزمنية الفاصلة بين سنوات دراسة المترشحين، فمنهم من هو حديث العهد بالبرامج، ومنهم من تطاول عليه الزمن قبل أن يجد فرصته في العمل، مما يقتضي اتخاذ كل ذلك بعين الاعتبار عند وضع أسئلة يراد لها أن تتيح فرصا متساوية بين المتبارين، خاصة أن جميع المترشحين يحملون الشهادات المطلوبة التي يفترض أن حاملها مؤهل لشغل الوظيفة المعروضة، إنما يبقى دور الاختبار هو البحث عن الأفضل والأكفأ، بما تفرزه القائمة التفاضلية المرتبة حسب الاستحقاق. وغالبا ما تواجه لجان التحكيم قضايا جانبية في هذا المجال، تتعلق بما إذا كان المطلوب هو انتقاء كامل العدد حسب ترتيب المترشحين بغض النظر عن مستوى معدلات نتائجهم، أم أنه يلزم أن يقتصر الاختيار على من حصل على معدل يساوي أو يفوق خمسين في المائة، حتى لو أفضى ذلك إلى عدم حصول العدد المطلوب، وتزداد أهمية معالجة هذا الجانب عندما نعلم أن المعدل العام لنسبة التأهل للنجاح في المسابقات التي نظمت سنة 2019 لم تتجاوز 16% من عدد المترشحين، ولم تتجاوز في ذات السنة 3,6% من المترشحين للمدرسة الوطنية للإدارة التي كان الولوج إليها مشروطا بالحصول على معدل يساوي او يفوق 60%، مما عبر بوضوح عن ضعف مستويات المتسابقين خاصة أن مستوى أسئلة الاختبارات ظلت متوسطة إن لم تكن سهلة.

3. : أما الصعوبة الأخرى فتتعلق بالرقابة داخل قاعات الامتحان، حيث يلاحظ تفشي محاولات الغش والتحايل أثناء إجراء الاختبارات بشكل مطرد وعلى نطاق واسع، ويزداد تأثيره السلبي بانتشار الوسائل التقنية ووسائط التواصل الاجتماعي، إلى جانب كون بعض المشرفين على الرقابة لا يتمتعون بما يكفي من الصرامة واليقظة والحزم التي تتطلبها مواجهة مثل هذه الأوضاع.

4. ضعف مستوى الانسجام بين بعض النصوص المتعلقة بتنظيم المسابقات، فرغم الإصلاحات الكبيرة التي تم إدخالها هذه السنة، وما حققته في مجال التنسيق بين لجان التحكيم واللجنة الوطنية للمسابقات، فإن هناك مواد في النظام الأساسي للموظفين والوكلاء العقدويين للدولة ما تزال تحتاج إلى مراجعة لتنسجم عناصرها الداخلية فيما بينها من جهة ولتنسجم مع مقتضيات مسؤولية اللجنة الوطنية للمسابقات عن سير وتنظيم مسابقات الولوج إلى الوظيفة العمومية، وعلى سبيل المثال نصت المادة الثالثة والخمسين من النظام الأساسي للموظفين على أنه « تحدد طبيعة وبرنامج ومواد المسابقة وكذا فتحها وتاريخ ومكان إجراء الاختبارات وعدد المقاعد المعروضة وقائمة المترشحين المقبولين بموجب مقرر صادر عن الوزير المكلف بالوظيفة العمومية فيما يتعلق بالأسلاك الوزارية البينية، وبمقرر مشترك صادر عن الوزير المكلف بقطاع الوظيفة العمومية والوزير الذي تتبع له الوظيفة موضع المسابقة فيما يتعلق بالأسلاك الأخرى» ويتضح عدم الانسجام في مضمون هذه المادة، في أنه من المتعذر معرفة قائمة المترشحين المقبولين قبل بدء الترشح، في حين أن هذه المادة نصت على أن المقرر المشار إليه يجب أن يشتمل على لائحة المترشحين المقبولين، فكيف له أن يشتمل على لائحة لم يبدأ التسجيل فيها بعد ؟

والصعوبة الثانية في إمكانية التقيد بمكان محدد سلفا لإجراء امتحان المسابقة قبل اكتمال الترشحات ومعرفة عدد المترشحين وما يطلبه من القاعات والمراكز، ينضاف إلى ذلك أن تحديد يوم الامتحان ينبغي أن يتم إشراك الجهة المكلفة بتنظيم المسابقة فيه طبقا لمتطلبات التنظيم المحكم ومقتضيات الظروف المختلفة.

كل ذلك يشير إلى حالة من ضعف مستوى الالتحام بين بعض النصوص ذات الصلة بتنظيم المسابقات الوطنية، وينبغي تعميق النظر فيها لضبط مختلف عناصر التنافر بينها.

إلا أن ذلك لن يقلل من شأن نتائج بالغة الوضوح مؤداها أن مكسب وجود سلطة إدارية مستقلة لا تخضع إلا لسلطان الحق والعدل والقانون، هي نتائج لا ينبغي غمطها، فبفضلها تمكنت هذه السلطة الإدارية، في ظروف اتسمت أحيانا بالصعوبة والتعقيد وضغط المهام، من أن تتخذ إجراءات مناسبة لبناء مسار وطني للنفاذ إلى الوظائف العمومية يتعزز بتراكم التجربة وبتصحيح الأخطاء واجتياز الصعاب ومواصلة الإصلاحات.

مفتش التعليم الثانوي محمدن الرباني

الدور التربوي للمفتش وسبل الارتقاء به

تعد العملية التربوية أهم الأنشطة التي تزاولها الأمم وتبذل ما بالإمكان من أجل توفيرها للأجيال؛ باعتبارها أساس التقدم، وطريق النهضة، وأبرز سبل حفظ التراث وحماية الخصوصية الحضارية.

وبقدر اهتمام الأمم بالتعليم وإنفاقها عليه يكون تقدمها، كما تعد العملية التربوية أفضل مجال للاستثمار الاقتصادي، وإنما يقاس اقتصاد الشعوب اليوم بتطورها التقني العلمي، لا بما تمتلك من ثروات الموارد الأولية، من هنا نجد الدول المتقدمة غنية وإن كانت محدودة الموارد الأولية، في حين نجد الدول المتخلفة علميا في عداد الدول الفقيرة رغم غنى بعضها بهذه الموارد.

تتألف العملية التربوية من جملة مكونات؛ من أهمها التلاميذ، والمدرسون، والمناهج، والوسائط والوسائل التعليمية، والإدارة، والتفتيش التربوي ...

ولئن كان دور المدرس والمناهج في العملية التربوية أساسيا جليا، فإن دور من ينتج المناهج ويكون ويوجه المدرس لا يقل أهمية عن دورهما في العملية التربوية، وهو الأمر الذي لا ينال ما يناسبه من الطرح والاهتمام والتذكير.

يعالج هذا المقال الدور التربوي للتفتيش التربوي في العملية التربوية وذلك من خلال المحاور التالية:

تعريف التفتيش التربوي وطبيعته وأهميته

وظائف التفتيش التربوي

أبرز إشكالات التفتيش التربوي

مستلزمات الارتقاء بالتفتيش التربوي

أولا تعريف التفتيش التربوي وأهميته

يتكون مصطلح التفتيش التربوي من عبارتين هما: التفتيش والتربوي، أما التفتيش لغة فمن مادة فتش و«الفاء والتاء والشين كلمة واحدة تدل على بحث عن شيء. تقول: فتشت فتشا، وفتشت تفتيشا .

ومنه قول الشاعر:

واستبق ما لم ترد قطيعته ... واستر بستره ما استقر في ستره

فرب بادي الجميل منه إذا ... فتش أبدى التفتيش عن عَوَره

والتربوي نسبة إلى التربية يقال: « ربيته تربية وتربيته، أي غذوته. هذا لكل ما ينمي، كالولد والزرع ونحوه. » والتربية اصطلاحا إكساب المتعلم المعارف والسلوك والمهارات اللازمة للنجاح في الحياة عن طريق مؤسسات مخصصة لهذا الهدف كالمدرسة.

أما اصطلاحا فيمكن تعريف التفتيش التربوي بأنه «عملية المراقبة والفحص للإجراءات والممارسات التربوية، اعتمادا على معلومات ومعطيات وبيانات تيسر تقويم أداء العاملين وتوجيههم وفق خطة محكمة؛ لتحسين وتطوير الأداء التربوي أو الإداري.» أو هو «نشاط علمي تقوم به سلطات إشرافية أعلى مستوى من الخبرة في مجال الإشراف، يهدف إلى تحسين العملية التعليمية ويساعد على النمو المهني للمدرسين عبر زياراتهم وتقديم النصائح والتوجيهات لهم أو من خلال الدورات التدريبية التي تساعد على تحسين أدائهم، أو «هو جهاز فني رقابي يهدف إلى تطوير العملية التعليمية والنهوض بها».

هكذا يبدو التفتيش التربوي هو العين الساهرة على تحقيق أهداف المجتمع التربوية من خلال الرؤية الحادة والنافذة للأشياء والقادرة على تحديد مظاهر القوة والضعف على شكل تفاعل بين المفتش التربوي ومن يقع تحت متابعته وتوجيهه بأسلوب تربوي يبين ويحلل العوامل التي تؤدي إلى النجاح أو الفشل عن طريق التشخيص والتحليل والتقويم.

ذلك هو التفتيش التربوي غير أنه اعتبارا لما في دلالة التفتيش من تلمس الأخطاء والثغرات وما تحمل من معاني الاستعلاء أضحت غير مرغوبة من بعض التربويين مما جعل بعض الأنظمة التربوية يستبدلها بمصطلحات أكثر لباقة من قبيل الإشراف التربوي ... ولعل هذه الملحوظة تفضي إلى إشكالية تحديد طبيعة التفتيش التربوي هل هو جهاز إداري للمراقبة والمحاسبة على التقصير في أداء الواجب؟ أم هو جهاز تربوي يضطلع بمهام تطوير المناهج والبحث التربوي وطرائق التدريس والتتبع التربوي للممارسات الصفية والتأطير والتقويم والتكوين وتنمية الكفايات المهنية للمدرسين ...؟ أم أنه يتسم بالطبيعتين كل في محله؟ ولعل الوظائف القانونية التي سنستعرض لاحقا في النصوص التنظيمية الرسمية في الجمهورية الإسلامية الموريتانية تؤكد الطبيعتين.

ثانيا- وظائف ومهام التفتيش:

يشكل التفتيش التربوي أهم آليات الارتقاء بالمنظومة للتعليم فهو أبرز وسائل المتابعة والتقويم والتأطير والتكوين والبحث وإعداد المناهج والبرامج الدراسية وتحيينها وتحسين التدريس وطرقه والرفع من مؤشرات التحصيل الدراسي. وبذلك يكون على المفتشية العامة مسؤولية كبرى في الرفع من جودة أداء المنظومة التربوية وتحسين العملية التربوية التكوينية عن طريق تكوين وتأطير المدرسين وربطهم بمستجدات الحقل التربوي.

وتحدد المادة التاسعة من المرسوم ٢٠١٢-٢٧٢ المنظم لأسلاك مفتشي التعليم الثانوي العام والفني وظائف المفتش التربوي على النحو التالي:

التأكد من مطابقة التعلم للبرامج الرسمية

إجراء التقويمات المتعلقة بتدريس المواد وبتدابير السياسة التربوية ونتائجها

اقتراح وإنعاش أنشطة الحياة المدرسية وضمان متابعتها وتقويمها
القيام بمهمات المشورة والتوجيه والرقابة والتفتيش والتنظير للمدرسين في المؤسسات الوطنية من التعليم الثانوي العام والفني (العمومية والخصوصية) وفي مدارس تكوين المعلمين، وفي المؤسسات الدراسية الموريتانية في الخارج
القيام بتقويم وإرشادات داخل تفتيش يحوي عند الاقتضاء دروسا رقمية (عددية)
إجراءات بحوث ذات ابتكارات تربوية وإجراء تجارب بهذا الخصوص
المساهمة في تصور وإعداد برامج المواد التعليمية المدرسة في التعليم الثانوي وتحديد توقيتها وضواربها
المساهمة في إنتاج وإجازة الكتب المدرسية والوسائل والوثائق التربوية الأخرى قبل نشرها
القيام بمتابعة التعليمات الرسمية المتعلقة بالبرامج والطرق التربوية
اقتراح خطط لتكوين المدرسين على محتويات البرامج والخطط التربوية
المعاينة المباشرة للأعمال والتجارب التربوية
المشاركة في تحديد الخيارات والتوجهات التربوية المتعلقة بالتعليم الثانوي
تقويم التنظيم التربوي للمؤسسات الثانوية (الجداول الزمنية للفصول، تنظيم التوقيت المدرسي وتوزيع التلاميذ داخل الفصول)
المشاركة في إعداد النظام الداخلي للمؤسسات الثانوية
معاينة الصعوبات في مجال التواصل والعلاقات على مستوى المؤسسات الثانوية من جهة وبين هذه المؤسسات ومحيطها من جهة أخرى والتدخل عند الاقتضاء لتصليح الاختلالات المحتملة ملاحظة مختلف الظواهر السلوكية للتلاميذ واقتراح المعالجة ومتابعة تنفيذ ها .

كما حددت المادة ١٣: من المرسوم ٢٠٠٦/٠١٥ المحدد لأسلاك التعليم الأساسي والثانوي مجال تخصص مفتشي التعليم الأساسي في النقاط التالية:

-إعداد البرامج
- التفتيش
- الاستشارة
- الإشراف الجهوي
- التقييم
- التخطيط
- البحث في المجال التربوي

ثالثا- أبرز إشكالات التفتيش:

رغم ما منحت النصوص المفتش التربوي من دور تكاد تتوقف عليه العملية برمتها؛ فإن الواقع شاهد على محدودية هذا الدور نظرا لكثرة وقوة التحديات والإشكالات التي يواجهها المفتشون التربويون منها ما هو مهني وظيفي ومنها ما هو مادي اجتماعي ومنها ما هو غير ذلك ، وعموما يمكننا تلخيصها في:

-الإشكال التنظيمي حيث يلحظ اضطراب في تصنيف المفتش التربوي خاصة على مستوى التعليم الثانوي العام والفني، ففي الوقت الذي تمنحه بعض النصوص مكانة معادلة لمدير مركزي نجد آخر مرسوم لهيكلة وزارة التهذيب الوطني والتكوين والإصلاح ينزل برؤساء الأقطاب إلى مستوى مدير مساعد كما أن السلم الوظيفي س ٨ E ٨ الذي تقرر منذ ٢٠١٢ ما زال معطلا ولم يستفد المفتشون منه، يضاف إلى ذلك عدم اتضاح العلاقة مع مختلف مكونات المنظومة التربوية... سواء مع مديري المؤسسات التعليمية أو المديرين الجهويين مما يسبب إرباكا أحيانا؛ مما يوجب نصوصا تنظم هذه العلاقات بجلاء بهدف استثمارها في تطوير أداء مختلف مكونات العملية التربوية خاصة مع الإدارة والأساتذة ..

- مشكلة قلة الطاقم وضعف وسائل العمل اللازمة لأداء المهام الأساسية المسندة إلى المفتشين، فعلى مستوى التعليم الأساسي قد توجد في المقاطعة الواحدة مئات المعلمين يتوزع تأطيرهم بين أربعة مفتشين، أما على مستوى التعليم الثانوي فالأمر أشد شحا حيث يقوم القطب الواحد بتأطير أساتذة أربع ولايات وقد لا يتجاوز مفتشو المادة مفتشين على مستوى القطب كله، هذا فضلا عن انعدام السيارات وقسوة الظروف العامة.

- هامشية التأثير، فضلا عن ضعف الوسائل ومحدودية الأماكن؛ فإن ما يبذله المفتشون من جهد جهيد في تأطير وتقويم المدرسين لا يلقى كبير اهتمام ولا مبالاة من طرف المدرسين نظرا لضعف اعتبار نتائج التقويمات التربوية في ترقيات وتشجيعات وتحويلات المدرسين على المستويات الجهوية والمركزية، خاصة في التعليم الثانوي العام والفني، أما على مستوى التعليم الأساسي فالأمر أفضل لأن لمفتشي التعليم الأساسي دورا في تحويل وترقيات المدرسين مما يجعل المعلمين أكثر استشعارا لدور المفتش من أساتذة التعليم الثانوي.

رابعا - مستلزمات الارتقاء بالتفتيش التربوي:

الارتقاء بالمفتش التربوي وتمكينه من ممارسة دوره على أكمل وجه وفي ظروف ملائمة هو ارتقاء بالعملية التربوية لما للمفتش التربوي من علاقة وطيدة بالمنهاج الدراسي ولما له من وظيفة التكوين والإرشاد والتقويم وغيرها من الوظائف التربوية بالواقع الفعلي المباشر للعملية التربوية، ناهيك عما يفترض من إسهامه في الدراسات الديداكتيكية.

يتطلب الارتقاء بالدور التربوي للمفتش التربوي استكمال جملة من الأبعاد تتضافر لتنتج خبيرا تربويا يستوعب رسالته التربوية وتتأتى له فرص الإبداع والتطوير ومن أهم تلك الأبعاد

البعد الأكاديمي ونعني به تمكن المفتش التربوي من المعارف التربوية بمختلف أنواعها ونظرياتها القديمة والحديثة إضافة إلى المادة العلمية التي يؤطر في مجالها بكل تفاصيلها العلمية، النظرية والتطبيقية ...

البعد الأخلاقي ونعني به أن يجسد المفتش التربوي القدوة الأخلاقية ويستشعر أهمية توجيه المدرسين إلى ترسيخ الأخلاق العامة وأخلاق المهنة خاصة، وأن يعمل على تطييب العلاقة المهنية بينه وبين باقي مكونات المنظومة التربوية، ويطبع قراراته بالمصداقية والمهنية والنزاهة.

البعد المهني ونعني به تمكن المفتش التربوي من أدواته وآلاته التي يشتغل بها مهنيا. والتي تتحقق بها جودة أدائه

في البحث والتأطير والتكوين والمراقبة.
البعد الثقافي والاجتماعي؛ ونعني به وعي المفتش بأهمية الثقافة الواسعة التي يجب أن تتسم بها شخصيته خاصة فيما يتعلق بالتقاليد والعادات وخصوصيات البيئة التي يؤطر فيها.
ولتحقيق هذه الأبعاد ينبغي للجهات القائمة على الشأن التربوي أخذ التوصيات التالية بعين الاعتبار:
زيادة مخصصات التفتيش التربوي زيادة معتبرة ومنح العاملين فيه الوسائل اللازمة للقيام بإشرافهم التربوي على أكمل وجه، ومنح المفتشين رواتب وعلاوات تمكنهم من العيش الكريم والتفرغ للنهوض بالعملية التربوية بحثا وتكوينا وتأطيرا.
تحديث برامج المدرسة العليا للتعليم لتكون قادرة على تحقيق الأبعاد اللازمة في المفتش التربوي
العناية بالتكوين المهني لتمكين المفتشين من مواكبة الجديد التربوي وتطوير الخبرات الضرورية لأدائهم التربوي المنشود.
أخذ التقويمات التربوية في ترقية وتحويل الموظفين وترقيتهم وكذا الآراء التربوية في الدراسات والورشات التي يقدمها المفتشون التربويون بعين الاعتبار.
وهناك حقيقة ينبغي إدراكها وهو أنه مهما بذل في التفتيش التربوي من جهد، ومهما ضخ فيه من موارد، فإن ذلك لن يغني شيئا في العلمية التربوية ما لم يكن المفتش نفسه مستشعرا جسامة الدور المنوط به، وهو ما يتطلب منه جملة أمور من أهمها:
إخلاص النية لله وديمومة المراقبة له فالإخلاص مفتاح النجاح
استشعار أن تطوير العملية التربوية أمانة في عنقه يجب أداؤها على أكمل وجه.
ضرب المثل الأعلى في المعرفة والسلوك.
التخطيط مع بداية السنة لعمله الإشرافي وتحديد أهدافه بدقة وعناية.
أن تكون الأهداف ذات واقعية وثيقة الصلة بالتربية بعيدا عن إغراءات الأهداف الحالمة
تحديد الوسائل والطرق المناسبة لتحقيق الأهداف حسب الإمكانات المتاحة.
التعرف على قدرات المدرسين الذين يشرف على متابعتهم تربويا وإدراك طاقاتهم، والعمل على إبرازها وتنميتها وتوظيفها في تحسين العمليات التعليمية.
القرب من المؤطرين والعمل على كسب قلوبهم بما يؤدي إلى مزيد من التقارب بين المدرس والمفتش قد يبلغ بالمدرس حدا يجعله على اتصال بالمفتش، ليس من أجل تقويم تربوي يتيح المشاركة في مسابقة أو التأهيل لترقية، بل للاستشارة وطلب التوجيه والإرشاد عند الحاجة وتقديم الملاحظات والمبادرات التي يرى من شأنها تطوير العملية التربوية.
وحاصل القول أن التفتيش التربوي هو القلب النابض والمحرك الأول للعملية التربوية، وأن إصلاح العملية التربوية يتطلب عناية خاصة بالمفتشين التربويين؛ باعتبارهم خبراء التخطيط والتنظير التربويين، كما أنهم أهم حلقات التنفيذ، من حيث كتابة البرامج وتصور الطرق والمقاربات التربوية الأكثر نجاعة وعملية، ومن حيث تكوين المدرسين على تلك البرامج والمقاربات التربوية والمواكبة التربوية والأكاديمية عموما، ومن حيث متابعة الأداء الميداني للإدارة والمدرسين وتقديم النصح والتوجيه لهم، والتقويم وإصلاح الأخطاء عند الاقتضاء.

أهم المراجع:

أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون،
إبراهيم العوان: الإشراف التربوي ومشكلاته دراسة ميدانية تقويمية دار يافا العلمية للنشر والتوزيع الأردن – عمان الطبعة الأولى.
بو سعدة قاسم الإشراف التربوي في الجزائر (التفتيش نموذجا) مجلة دراسات نفسية وتربوية العدد الرابع ٢٠١٠
عقلي سعيد واقع الإشراف التربوي وأفق التطوير مجلة عالم التربية ع ٢-٣ صيف ١٩٩٦ من ص ٥٢ – ٦٥
ملحقة سعيدة الجهوية: المعجم التربوي إثراء فريدة شنان، مصطفى هجرسي، تصحيح وتنقيح عثمان آيت مهدي – المركز الوطني للوثائق التربوية – وزارة التربية الوطنية – الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
هيئة التأطير بالمعهد الوطني لتكوين مستخدمي التربية وتحسين مستواهم تقنيات التفتيش (سند تكويني موجه لنمط التفتيش). ٢٠٠٥
المجلس الأعلى للتعليم بالمملكة المغربية: رأي المجلس الأعلى للتعليم ٠٩/٤ – تطوير مهنة ومهام التفتيش التربوي يوليو ٢٠٠٩
فويتح زهراء أسلوب التفتيش التربوي وأثره في توجيه العملية التكوينية لمعلمي المدارس الابتدائية رسالة الماستر جامعة أحمد دراية – آدرار – الجزائر
محمد الطالب ويس المفتش والدور المغيب في التعليم الموريتاني

1 - ابن فارس معجم مقاييس اللغة مادة فتش
2 - الجوهري إسماعيل بن حماد صحاح اللغة مادة ربا
3 - يراجع: فويتح زهراء أسلوب التفتيش التربوي وأثره في توجيه العملية التكوينية لمعلمي المدارس الابتدائية ص ٧ فما بعدها. وملحقة سعيدة الجهوية: المعجم التربوي إثراء فريدة شنان، مصطفى هجرسي، تصحيح وتنقيح عثمان آيت مهدي ص ٧٨-٧٩.
4 - المرسوم ٢٠١٢-٢٧٢ منشور ضمن مجموعة من النصوص صادرة عن وزارة الوظيفة العمومية والعمل وعصرنة الإدارة ٢٠١٥.
5 - المرسوم ٢٠٠٦-٠١٥ منشور ضمن مجموعة من النصوص صادرة عن وزارة الوظيفة العمومية والعمل وعصرنة الإدارة ٢٠١٢.
6 - يراجع في إشكالات التفتيش التربوي: رأي المجلس الأعلى للتعليم ٠٩/٤ – تطوير مهنة ومهام التفتيش التربوي يوليو ٢٠٠٩ ص ١٠ وما بعدها، وبو سعدة قاسم الإشراف التربوي في الجزائر (التفتيش نموذجا) مجلة دراسات نفسية وتربوية العدد الرابع ٢٠١٠ ص ١١٩-١٢١.

أ.د. محمد بن تتا
قسم اللغة العربية كلية الآداب - نواكشوط

القصة القصيرة بموريتانيا

توطئة واقتصاص

بعد نشوء الدولة الوطنية بموريتانيا بدأت محاولات لتحديث الأدب العربي وأشكاله التعبيرية يوجهها-في مفارقة جلية -هاجسان:
- أولهما النزوع إلى الاندماج في القيم الثقافية للمركز، الذي هو الأنموذج الجديد للثقافة العربية، تأكيدا للهوية وتشبثا بالأصول، بعد قرون من العزلة الثقافية وعقود من الغربة اللغوية في ظل الاحتلال الأجنبي.
- أما الثاني فهو إبراز الخصوصية المحلية ترسيخا للحدود السياسية القطرية وتدعيما لها بحدود ثقافية جديدة.
ورغم الحفاوة الكبيرة التي يتلقف بها الموريتانيون كل الإشادات العربية بتضلعهم في الثقافة القديمة فإن رهان الشباب المثقف ثقافة عصرية، على اختلاف مشاربه ونزعاته، لم يكن على مضمار الثقافة القديمة، إذ كان همه، بالأساس، تحقيق التواصل مع الثقافة العربية الجديدة. وهكذا نجد، منذ ذلك العهد، حضورا لافتا للون جديد من الشعر يطبعه الالتزام بقضايا الأمة، ولكنه مطبوع – على نحو أخص- باحتذاء نماذج القصيدة العربية في النصف الأول من القرن العشرين.
مع هذا الانفتاح على جديد الشعر العربي، بدأ الشعراء والمثقفون الشناقطة يستجلون أمرا لم يكن في الحسبان: هو أن الشعر في عصرنا الراهن ديوان من دواوين العرب، وأن ثمة أشكالا نثرية مستحدثة كالمسرح والرواية والقصة لا تذعن لقوامة الشعر إذعان فنون النثر القديمة.

وبدافع من السعي إلى الاندماج في القيم الأدبية الجديدة، وإبراز الخصوصية المحلية كانت المحاولات الأولى لكتابة القصة القصيرة لدى جيل المؤسسين في رابطة الأدباء الموريتانيين (تأسست 1975).
ومن أوائل هؤلاء الرواد مقرّون بأن محاولاتهم كانت نابعة من تساؤل طفولي يشوبه إحساس ما بالنقص: لماذا لا يكون لدينا – كسائر الأقطار العربية – أدب قصصي؟ ومن ثم «اتخذ القرار» لسد هذا النقص[1] .
ولم يكن غريبا، والحال هذه، أن يكون المرحوم إسلم ولد بيّه حين كان طالبا بمصر[2] أول متصد لهذه المهمة.
تجدر الإشارة هنا إلى أن انعدام وسائل النشر في هذا الركن القصي لم يؤثر كثيرا في القصيدة التي ظلت، كما كانت من قبل، تنشد في المحافل فتتلقفها الرواة لتنفض بها – على حد قول الأعشى – الأقتاب في كل منزل. ولكن القصة – على النقيض من ذلك- كانت بعد قراءتها في لقاء ثقافي على مسامع جمهور محدود من المهتمين تبقى عرضة للتلف والضياع، في انتظار فرصة للنشر ليس يُدرى متى تتاح.
من هنا، يكون من المفيد، لمن يسعى إلى التعريف، الوقوف عند «مصادر» القصة القصيرة في موريتانيا من مختارات ومجاميع قصصية، قبل تناول سياق النشأة والتطور، ومحاولة التصنيف، وإيراد ملاحظات برسم الختام.

1.مصادر القصة القصيرة بموريتانيا

ثمة – دون شك – عدة محاولات، لا تزال بانتظار الجرد والتقويم، نشرت في اليومية الرسمية[3] أو في نشرات أكثر ندرة مثل (الرسالة) التي كانت تصدر عن المركز الثقافي المصري، و(القصص) التي صدرت منها أعداد محدودة عن (نادي القصة) في المدرسة العليا للتعليم (1985-86)، غير أن المرتكز الآن في دراسة القصة الموريتانية لا يزال على تلك المختارات التي نشرت ضمن ملفات عن الأدب الموريتاني في بعض المجلات العربية، وبعض المجاميع القصصية المرقونة أو المطبوعة.

1/1 المختارات

1/1/1 مجلة الفكر- تونس (1977):

نشرت مجلة الفكر التونسية التي كان يصدرها الأستاذ محمد مزالي (العدد 2 نوفمبر سنة 1977) «عددا خاصا بالأدب الموريتاني، رغم تواضع محتواه،

1. حديث شخصي مع الأستاذ كبر هاشم في صيف 1992.
2. إسلمو ولد بيه (توفي سنة 1985) درس القانون بجمهورية مصر العربية، مارس كتابة القصة القصيرة التي يعتبر رائدها الأول في موريتانيا
3. جريدة الشعب التي تصدر منذ أواسط السبعينات

يحتوي قصصا ونصوصا شعرية وتعاليق تاريخية[4] « تضمن قصة قصيرة بعنوان (الموت البطيء) للشاعر محمد كابر هاشم[5] وأخرى بعنوان (حب عبر الأسلاك) للقاص محمد فال ولد عبد الرحمن[6].

2.1.1مجلة القصة- القاهرة (1995):

في العدد 80 إبريل مايو 1995 نشرت القصة ملفا عنوانه « مقاربة في القصة الموريتانية» تناول معده الدكتور أحمد حبيب الله ثلاث قصص هي «غاية الغراب» لمحمد بن تتا[7] (كتبت سنة 1986)، «وطال التيه» لمحمد فال ولد عبد الرحمن (كتبت سنة 1979)، و «عشاء المؤمنين» للمرحوم إسلمو ولد بيه (نشرت سنة 1973)، ولكنه في الوقت ذاته نشر نصا نادرا هو «الركن» لمحمد كابر هاشم، و»حين ينفد الوقت»، وهي جميعا نصوص سبق أن نشرت.

3.1.1مختارات من الأدب الشنقيطي الحديث[8] (1996):

وقد تم نشرها بالتعاون مع الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب بعمّان، وظهرت فيها بعض النصوص القصصية القصيرة لمحمد فال ولد عبد الرحمن من مجموعته (إليك وقد عز اللقاء) ومحمد بن تتا(من ضمن نصوص منشورة في الثمانينات) إضافة إلى نصوص أخرى لمبارکة بنت البراء[9] وأم كلثوم بنت أحمد[10] (من مجموعة مارية).

4.1.1 مجلة الآداب. بيروت. (1997):

وقد أعد مديرها المرحوم الدكتور سهيل إدريس، بطلب من الروائي موسى ولد أبنو[11]، ملفا عن الأدب الموريتاني في العدد 4/3 آذار/ نيسان 1997 نشرت ضمنه ثلاث قصص قصيرة هي (انتحار) لأم كلثوم بنت أحمد، (وطال التيه) لمحمد فال ولد عبد الرحمن و(الحبل الأخضر) لمحمد بن تتا (نشرت في فبراير 1984 بجريدة الشعب ثم نشرت ضمن مجموعة « من كرامات الشيخ[12] «)

4.1.1 الوسيط في الأدب الموريتاني الحديث. نواكشوط 1997 (موسى ولد أبنو وآخرون):

استكمالا لملف الآداب الآنف الذكر وبمبادرة من الروائي موسى ولد أبنو، ورعاية من رئاسة الجمهورية، تم إعداد كتاب «الوسيط في الأدب الموريتاني الحديث» للإسهام في التعريف بالأدب الموريتاني، وقد تضمن عددا من النصوص القصصية القصيرة تغطي مساحة 110 صفحات. هي: (المنفقعة) لموسى ولد أبنو، (الخراب) و(السجين) لمحمد بن أحظانا[13] ، و(ابن الكبة) و(الأجير) و(مفترق الطرق) لأم كلثوم بنت أحمد، و(الثلج المحترق) و(الحريق) للشيخ أحمد أمين[14] ، و (من كرامات الشيخ) لمحمد بن تتا، و(حوار) و(الهرب) لسيد إبراهيم ولد محمد أحمد[15] ، و(الهوية) لمحمد فال ولد عبد الرحمن، و(أزمة أديب شاب) و(قتل) لسعدبوه ولد المصطفى[16] ، و (العودة) و (مدينة الحب) لخديجة بنت هنون[17] .

5.1.1مختارات من القصة القصيرة الموريتانية (سعدبوه ولد المصطفى. دار الفكر. نواكشوط 2008):

وقد صدرت هذه المختارات ضمن منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين، وكانت أول مختارات تتمحض للقصة القصيرة، وقد جمعت بين دفتيها(42) نصا قصصيا لخمسة وعشرين كاتبا (25) منهم (16) من كتاب الشباب أو ممن لم تصدر لهم نصوص في الاختيارات السابقة. وهم: أم كلثوم المعلى[18] (لأول مرة، التعويذة)، أحمدو ولد الكتاب[19] ، (فهلا كنتم سألتموني؟) جليلة معلام[20] (غدا عندما تشرق الشمس)، جمال محمد عمر[21] (رحلة في فضاء ضيق، قصة جريح)، الحسن ولد احريمو[22] (تغريبة ابن خربة، حلم الأخرس، ابو زيد البهلوان في بيت الغولة، أوديب يلتقي أبو الهول)، الديماني ولد محمد يحي[23] (القسرة، رنين الهاتف)، طيبة بنت إسلم[24] (طيف، شغف الذاكرة)، فائزة بنت محمد عبد الله[25] (عذراء في الأربعين، الحب المستحيل)، لميمه بنت محمد عبدالله[26] (سعادتي هناك، سبعة قلوب والثامن في الطريق)، محمد ولد محمد سالم[27] (الصولة الأخيرة، أما زلت أنت أنت؟)، محمد إبراهيم ولد محمدنا[28] (ليلة صيف، قرية الرمال)، محمد الأمين ولد أحظانا[29] (البوابة الزرقاء)، محمد

4. موسى ولد أبنو وآخرون، الوسيط في الأدب الموريتاني الحديث، المطبعة الوطنية بنواكشوط، 1997، ص 9
5. ولد سنة 1953، شاعر وصحفي، ساهم في تأسيس رابطة الأدباء الموريتانيين وتولى رئاستها كما تولى رئاسة اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين..
6. محمد فال ولد عبد الرحمن، ولد سنة 1956، تخرج في جامعة دمشق، من رواد القصة القصيرة والمسرحية في موريتانيا، باحث بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي
7. محمد بن تتا، ولد سنة 1966، كاتب وأكاديمي، يعمل أستاذا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة نواكشوط
8. لم نوفق في العثورعلى هذه المختارات التي كنا واكبنا إعدادها ، ومن ثم نجدر التحفظ تجاه ما ورد عنها إذ تم الاعتماد فيه على الذاكرة.
9. مباركة (باته) بنت البراء، ولدت سنة 1957 شاعرة وأكاديمية، اشتغلت بالتدريس بموريتانيا وبالمملكة العربية السعودية.
10. أم كلثوم بنت أحمد، ولدت سنة 1964، تخرجت في مدرسة المعلمين، كتبت القصة القصيرة وأدب الطفل
11. موسى ولد أبنو، ولد سنة 1956، تخرج في المعهد العالي للصحافة بباريس ثم في قسم الفلسفة في السوربون. كتب الرواية والقصة القصيرة بالعربية والفرنسية.
12. من كرامات الشيخ (قصص) نشر بعض نصوصها في جريدة الشعب سنة 1984 مع تعديلات مخلة أحيانا من طرف هيئة تحرير غير مختصة. ثم نشرت مرقونة سنة 1986.
13. محمد ولد أحظانا، ولد سنة 1958 . تخرج في المدرسة العليا للتعليم له أعمال إبداعية وبحوث منشورة
14. الشيخ أحمد أمين، ولد سنة 1965، تخرج في المدرسة العليا للتعليم، مارس الأدب والصحافة
15. سيد إبراهيم ولد محمد أحمد، درس القانون بكليتي الحقوق في نواكشوط والرباط، أكاديمي وكاتب
16. سعدبوه ولد المصطفى، ولد سنة 1967 . تخرج في كلية الآداب والعلوم الإنسانية. مارس الكتابة الصحفية والأدبية
17. خديجة بنت هنون،ولدت سنة 1972، اشتغلت بالإعلام، لها مجموعة قصص منشورة.
18. ولدت سنة 1985، تخرجت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، لها مجموعة قصصية (التعويذة) ولها بحوث أكاديمية في الأدب
19. ولد سنة 1964، حاصل على الإجازة في الاقتصاد
20. جليلة بنت معلام، ولدت سنة 1983، درست القانون واشتغلت بالإعلام، لها مجموعة قصصية (العبور إلى الجسر الآخر)نشرت سنة 2004
21. ولد سنة 1979، مارس التعليم والإعلام، له مجموعة قصصية.
22. قاص مقيم بالإمارات العربية.
23. الديماني ولدمحمد يحي، ولد سنة 1970 تخرج في كلية الآداب والعلوم والإنسانية مارس التعليم والصحافة المكتوبة.
24. طيبة بنت إسلم، ولدت سنة 1983، حصلت على الإجازة من كلية الآداب، مارست العمل الصحفي. لها مجموعة بعنوان (شغف الذاكرة) نشرت سنة 2007
25. لها مجموعة قصصية منشورة بعنوان (تجربة).
26. لميمة بنت محمد عبد الله، تخرجت في كلية الآداب ومارست التعليم لها مجموعة منشورة (سبعة قلوب والثامن في الطريق)
27. محمد ولد محمد سالم، ولد سنة 1969 حصل على كفاءة التدريس في التعليم الثانوي، له أعمال روائية منشورة.
28. محمد إبراهيم محمدنا، ولد سنة 1975، حصل على المتريز من كلية الآداب، يكتب القصة القصير والشعر.
29. محمد الأمين ولد أحظانا، ولد سنة 1956، تخرج في المدرسة العليا للتعليم، له نصوص روائية منشورة.

الأمين ولد افيل[30] (السيجارة)، محمد الأمين ولد سيدي باب[31] (المتخلف، قضاة السماء)، المختار ولد امبيريك[32] (حب عابر، قيد من حرير)، المختار السالم ولد محمد محفوظ[33] (أسطورة الفضائيات، ليلة ممطرة).

2،1 المجموعات

تحدثنا الرواية الشفاهية عن مجموعات من القصص القصيرة في السبعينات اخترمتها المخارم: من ضياع في الحل والترحال، ومصادرات في فترات الاعتقال، وتحولات في مواقف الكتاب تدفعهم – لهذا السبب أو ذاك – إلى التنكر لتلك الإبداعات وطمس آثارها من الوجود.

في أواخر الثمانينات، نجد الباحث محمد بن عبد الحي في (التجديد في الأدب العربي بموريتانيا في العصر الحديث[34]) يقول: «أقدم مجموعة قصصية عثرنا عليها هي مجموعة محمد فال ولد عبد الرحمن التي عنوانها (إليك وقد عز اللقاء) وهو عنوان لإحدى قصص المجموعة[35]» التي كتبت فيما بين 1975 و1982[36] أما «ثاني مجموعة مترابطة فيما بينها جمعها صاحبها في كراس مرقون، وزع في حدود ضيقة، فهي مجموعة محمد بن تتا التي عنوانها (من كرامات الشيخ) وقد أرخ الكراس بسنة 1986[37]» . ومن هاتين المجموعتين ومجموعة ثالثة وصفت بأنها «متفرقات مما ينشر في جريدة الشعب من حين لآخر[38]» اتخذ الأستاذ محمد ولد عبد الحي مدونة لدراسته. وهذه المجموعة هي: (قال الراوي) لمحمد الأمين ولد محمد فاضل[39] ، (الطريق) للمختار ولد امبيريك[40] ، (سلامة) محمد محمود ولد محمد[41] ، (الحريق) للشيخ أحمد أمين[42] ، (العنوان) لسيدي محمد ولد متالي[43] . وفي سنة 1994 أصدرت أم كلثوم بنت أحمد مجموعتها (مارية) مرقونة وتم تداولها في نطاق محدود، وفي سنة 1995 صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، في سلسلة إشراقات أدبية، مجموعة محمد الحسن بن محمد المصطفى (اعترافات الفتى عزيز) أولى مجموعة قصصية موريتانية منشورة. في السنوات التالية صدرت مجموعات أخرى في طبعات محلية أو تجريبية منها (بريق العيون) لمحمد بن أحظانا سنة 1995 و (مدينة الحب) لخديجة بنت هنون 1997، و (العبور إلى الجسر الآخر) لجليلة بنت معلام سنة 2004، (شغف الذاكرة) لطيبة بنت إسلم سنة 2007.

وفي سنوات 2008، 2009، 2010، 2011، أصدر اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين عددا من المجموعات المذكورة: (إليك وقد عز اللقاء) لمحمد فال، (مارية) لأم كلثوم بنت أحمد، (الملحفة واللثام) لسعدبوه المصطفى، (قضاة السماء) لمحمد الأمين ولد سيدي باب، (مدينة الخيام) للطيب ولد صالح، (تجربة) لفائزة بنت محمد عبدالله. (ليلة صيف) لمحمد إبراهيم محمدنا، (سبعة قلوب والثامن في الطريق) لاميمة بنت محمد عبدالله.

وقد يكون من المفيد، قبل الانتقال إلى سياقات النشأة، التأكيد مرة أخرى، على أن هذا الجرد لم يستوف كل المنشور مما كتب. ومن هذه النصوص الغائبة – خصوصا من مرحلة التأسيس- ما قد يكون جديرا بأن يتوقف عنده. وبغض النظر عن الأسماء العالقة بالذاكرة ممن كتب النص أو النصين فإن مجموعة كاملة نشر بعضها في جريدة الشعب في بحر الثمانينات، هي مجموعة القاص عبد الودود (أبو معتز) الجيلاني[44] لم يرد لها في المختارات السالفة ذكر.

2. سياق النشأة

ربما كان علينا، حين نتناول نشأة السرد الموريتاني الحديث، أن نتحدث عن السياقات بصيغة الجمع، لأن الأمر في الواقع – لا يتعلق بسياق واحد بل بسياقات تنتظم في شكل دوائر موجية أو تتداخل أحيانا، فلا مناص من أن نأخذ في الحسبان أن هذه الأشكال التعبيرية – من حيث المنشأ على الأقل – منتمية لحقل ثقافي مغاير وأنها استنبتت في الثقافة العربية في ظل خيارات نهضوية محددة واضحة على مستوى المركز، لتستنسخ فيما بعد، وفي فترات متفاوتة، من لدن الأطراف. ومن أجل ذلك يكون من المفيد الإلمام بسياق نشأة هذه الفنون في ثقافتها الأصلية إذ لا غنى عنه لاستيعاب السياق العربي العام الذي لا غنى عنه – هو أيضا – لتناول التجارب الوطنية.

1.2 السياق العام:

بإيجاز شديد، يمكن القول إن نشأة أبرز هذه الفنون جاءت مساوقة لتحولات اجتماعية وثقافية جلى صاحبت صعود الطبقة البرجوازية في مجتمعات أوربا، استتبعت البحث عن أشكال تعبيرية تتجذر من خلالها القطيعة مع ثقافة الطبقة الارستقراطية الآفلة.

ومن ثم وجدنا الشكل السردي الأبرز آنئذ – الرواية (قبل ظهور القصة القصيرة طبعا) – في رأي منظريه وكتابه، شكل الحرية والانعتاق والنزوع إلى المطلق، الشكل الذي يستجيب لحاجات الطبقة الصاعدة، وهذا طرح مشهور لدى الرومانسية الألمانية الأولى ولدى هيجل وجورج لوكاتش وغير هؤلاء.

هذا البعد «التحديثي» لم يكن – بطبيعة

30. درس واشتغل بإسبانيا له نصوص قصصية.
31. محمد الأمين ولد سيدي باب، ولد سنة 1964، درس القانون بموريتانيا والمغرب، أكاديمي وكاتب.
32. المختار ولد امبيريك، ولد سنة 1966، مارس الكتابة القصصية منذ الثمانينات.
33. ولد سنة 1976، مارس التدريس، له نصوص قصصية وشعرية.
34. محمد بن عبد الحي،التجديد في الأدب العربي بموريتانيا في العصر الحديث، بحث مرقون بكلية الآداب بمنوبه، جامعة تونس، 1989
35. التجديد في الأدب العربي بموريتانيا في العصر الحديث، ، ص 39.
36. التجديد في الأدب العربي بموريتانيا في العصر الحديث، ، ص 39.
37. التجديد في الأدب العربي بموريتانيا في العصر الحديث، ، ص41
38. التجديد في الأدب العربي بموريتانيا في العصر الحديث، ، ص41
39. لم نعثر على ترجمة للكاتب.
40. سبق التعريف به
41. لم نعثر على ترجمة للكاتب
42. سبق التعريف به
43. لم نعثر على ترجمة للكاتب
44. كاتب ورسام تعاطى العمل بالصحافة المكتوبة ردحا من الزمن، نشر رسومه الكاريكاتيرية في جريدة الشعب، وتولى لاحقا رئاسة اتحاد الفنانين التشكيليين الموريتانيين.

الحال – غائبا عن أذهان دعاة المواقف العصرانية من النهضويين العرب الذين اعتبروا الحضارة الغربية نموذجا كونيا يشكل احتذاؤه في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة شرط النهضة المنشودة.

ومن هنا كان نقل الفنون المستحدثة إلى اللسان العربي، وكان اختيار شكل أساسي للكتابة – في حد ذاته – موقفا من الجدل النهضوي الدائر: فكتابة القصيدة – مثلا – على طريقة حافظ إبراهيم موالاة لا مواربة فيها للطرح السلفي بينما تعتبر كتابة الرواية أو القصة القصيرة أو المسرحية موقفا

عصرانيا (ليبراليا كان أو اشتراكيا) يرى الخلاص من التخلف مشروطا بالاندماج في قيم الثقافة الغربية.

لنخلص إلى أن فنون السرد العربية الحديث نشأت – تحديدا – في كنف الطرح الليبرالي القومي عربيا كان أو فرعونيا أو فينيقيا، هذا الطرح الذي بدأ يفقد ما كان له من ألق في فترة ما بين الحربين حين تعرف المثقفون العرب على الوجه الآخر لأوربا، وجه الاستعمار والتوسع.. إلخ، ليفلس بشكل جلي في منتصف القرن العشرين ولكن بعد أن تبوأت الفنون التي نشأت في كنفه مكانتها داخل النص الثقافي العربي وبعد أن أصبح لدينا كتاب من أمثال توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويحي حقي... أي أن هذه الفنون أصبحت واقعا ثقافيا يُتعاطى معه بغض النظر عن المنشأ والخلفية الإيديولوجية البدئية.

ومنذ بداية النصف الثاني من القرن العشرين سادت السوح العربية رؤى جديدة يمكن أن نطلق عليها تسمية اليسار العربي رغم التباين الكبير بين مكوناتها، كان القاسم المشترك بينها – على تفاوت كبير أيضا – احتذاء النموذج الأوربي الشرقي بدلا من النموذج الأوربي الغربي في السياسة وفي الاقتصاد وفي الثقافة أيضا.

وكانت سنة 1967 – في رأي كثير من الباحثين – بداية مرحلة جديدة لغير قليل من أصحاب هذا الطرح، إذا كانت النكسة مساءلة للمشروع النهضوي ومحاسبة، وليس من الصدف أن نجد في العالم العربي، غير بعيد من هذا العهد نزوعا طاغيا إلى التنقيب في التراث بحثا فيه عن جذور لهذه الفنون الأدبية المستحدثة.

هذا السياق العربي العام كان لمختلف جوانبه تأثيرها في النص السردي الموريتاني لاحقا:

فعلى مستوى الأشكال نلفي احتذاء النموذج المنقول عن الغرب، كما نجد في الوقت ذاته التشبث العميق باستثمار أشكال السرد التراثي من أخبار وأسمار وكرامات في محاولات الكتابة القصصية القصيرة. وعلى مستوى التيمات يستعيد النص القصصي الموريتاني في أحيان كثيرة بعد الموضوعات الأثيرة لدى القصة العربية كالمرأة والاضطهاد الاجتماعي والفقر ونحو ذلك.

2.2 السياق المحلي الخاص:

أيا كان دور المؤثرات الخارجية في نشأة الأشكال التعبيرية فإن العوامل الذاتية تبقى دوما ضرورية لتفسير فاعلية المؤثر الخارجي، ومن ثم يكون من المهم أن نتلمس المستجدات التي هيأت السياق الاجتماعي الثقافي لتقبل الجديد وللتفاعل معه.

يمكن هنا الحديث عن عاملين اثنين كان لهما الأثر البالغ في نشأة الفنون السردية أولهما خارجي هو الاستعمار وما قاد إليه من تحولات سياسية، ألحقت البلاد عنوة بالعصر الحديث، وفككت نظام المجتمع البدوي القديم لتفرض عليه أشكال السلطة في الدولة الأوروبية الحديثة.

أما الثاني فهو التحضر القسري الذي فرضته ظاهرة الجفاف والتصحر (في أواخر ستينيات القرن العشرين) وما سببته من تفكيك لأنماط الإنتاج التقليدية وإنشاء للمدن المرتجلة بما تأسست عليه من إرث البداوة وآثار الثقافات الوافدة والمتاخمة؛ إذ أصبحت هذه المدن المرتجلة وجهة لجميع الساعين إلى حياة أفضل عن طريق العلم والعمل ومصطرعا لجميع الأطروحات الثورية العالمية (التيارات الماركسية) والمشروعات النهضوية العربية (القومية والإسلامية) ما عدا الطرح الليبرالي القومي الذي نشأت هذه الفنون في كنفه أصلا.

وبالجملة فإن عالم الخوارق والبطولات الذي كان الشعر قد تمحض، في المجتمع القديم، للتغني به أصبح جزءا من تاريخ الأرض التي استسلمت بمن عليها إلى سيرورة لا حد لها من التحول هي التي ولدت الحاجة، موضوعيا، إلى شكل تعبيري جديد يستطيع تتبع هذه التحولات، ليلم شتات هذا الواقع المتبدل الممزق ويجعل له أفقا ومعنى.

هكذا، إذنْ، نشأت هذه الأشكال على إيقاع التحولات الاجتماعية المحلية، في وقت كان لا يزال فيه للفكر الثوري في البلاد وعلى مستوى العالم ككل ما كان له من ألق، مبشرة ببديل جاهز وواضح. وحين تبدل الواقع – على مستوى الوطن العربي والعالم أجمع

– كانت هذه الفنون قد أصبحت هي أيضا– في بلاد شنقيط – واقعا ثقافيا يتعاطى معه بغض النظر عن المنشأ والخلفية الإيديولوجية البدئية.

معنى ذلك أن نشأة السرد الموريتاني الحديث لم تكن احتذاء للنماذج الغربية أو وعيا بالحاجة إلى شكل تعبيري وإنما كانت سعيا إلى تأكيد انتماء هزته قرون من القطيعة تلتها عقود من التحولات.

وإذا كان السرد العربي الحديث – في عهد النشأة – قد اختار، عن وعي، القطيعة مع الأنموذج التراثي العربي، فإن السرد الموريتاني الناشئ كان سليل الثقافة المحظرية التقليدية بكل مكوناتها ووريث سرود الصحراء وفضاءات التعدد الثقافي والعرقي، وذلك ما سيشكل بعض ملامح التميز في النص القصصي الموريتاني.

3. محاولات التقويم والتصنيف

هذه، عموما، حصيلة أربعة عقود من التجارب القصصية القصيرة وأهلها يتأبون – في الغالب – على أي تحقيب أو تصنيف، لتداخل المذاهب الفنية في التجربة الواحدة، ولغياب الرؤية الفنية المهيمنة على مجمل إبداعات الكاتب لدى كثير منهم.

3. 1. في (التجديد في الأدب العربي بموريتانيا في العصر الحديث، 1989[45].) يطرح الباحث محمد بن عبد الحي، بعد الإلماح إلى أهم قواعد القصة القصيرة، السؤال التالي: «كيف وعت القصة القصيرة في موريتانيا هذه الخصوصيات الفنية؟ وكيف عبرت عن واقعها الاجتماعي والفكري؟ وكيف عكست المستوى الفكري والأدبي في بيئتها؟»

وإثر تناول بنى الزمان والمكان والمنظور في المدونة المختارة يخلص الباحث إلى أنه «بغض النظر عن قضية الكم الذي تميل كافة النماذج التي حللنا إلى عدم الاكتراث به، فإن هذه النماذج من حيث الكيف مقبولة، أي من حيث استخدام الأدوات الفنية المختلفة، فهي تعبير فني عن واقع اجتماعي وسياسي وفكري يعيشه الكاتب ومجتمعه، وهي رؤى لهذا الواقع لا يخلو بعضها أحيانا من عمق. وهي تعبير عن مواقف رفض لهذا الواقع بجانبيه المادي والإيديولوجي، بل وإدانة له أحيانا، ولقد ولدت مرتبطة بهذا الواقع الاجتماعي. ولم يكن الشعر القديم في الساحة الأدبية يومئذ قد نزل إلى معترك الواقع الاجتماعي وإن كان يومها قد أصبح مرتبطا بالسياسة عموما[46]»

وبعد هذا التقويم المضموني يضيف الباحث:

«ويبدو لنا أن كافة النماذج التي مرت بها القصة القصيرة في الأدب العربي تتواجد اليوم في ساحتنا الأدبية، فثمة القصص التي هي وسط بين المقامة والقصة كما لاحظنا في قصة (قال الراوي)، وثمة قصص، وليس في مدونتنا، هي وسط بين القصة والمقالة، وثمة قصص هي الأكثر بضمير الغائب تنتهج القص التقليدي وقصص أخرى بضمير المتكلم تنتهج القص الحديث، وأخرى تتمحض للمونولوج إلخ..[47] » هذه الملاحظات كانت فيما بعد موضوعا للعديد من التفصيلات والاستعادة في كتب ورسائل جامعية مختلفة.

3. 2 وقد حاول الدكتور محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، كذلك، في (القبر المجهول أو الأصول[48])، استبانة الملامح العامة للسرد الموريتاني جملة (القصصي القصير والروائي معا) خلال العقود الثلاثة الأولى وتصنيفه إلى:

– حركة سرد السبعينات: وتمثلها الأشكال التراثية الحديثة كنصوص محمد فال بن عبد اللطيف من جهة وتمثلها من جهة ثانية نصوص رواد القصة القصيرة أمثال المرحوم إسلم ولد بيه.

– حركة سرد الثمانينات: ويقسمها الباحث إلى سرد تقليدي تمثله أغلب النصوص التي ظهرت في الثمانينات، وسرد غير تقليدي يستثمر تقنيات القص الشعبي التراثي، ويمثل لهذا اللون بمجموعة «من كرامات الشيخ[49]» وكتابات ولد احظانا، ومحمذن بابا ولد أشفغ[50].

– حركة سرد التسعينات: ويقسمها إلى خط السرد المتكئ على النثرية العربية الحديثة المحلي، المنجز في أفق تجربة الكتابة العربية، أما الخط السردي الثاني، فيستند إلى نثرية عربية تراثية محلية مع الانفتاح على تقنيات السرد الحديثة، وهو يمتاز في نظره «باستخدامه أنماطا من أشكال السرد التراثي وتقنيات القص الشعبي التراثي المحلي الشفهي وتقنية الحلم والبث الداخلي، وقد برزت مه لغة الجسد بعنف أحيانا وظهرت لغة لاذعة

45. بحث لنيل شهادة المرحلة الثالثة بكلية الآداب بمنوبة، تونس.1989.
46. التجديد في الأدب العربي بموريتانيا في العصر الحديث، ص 76.
47. التجديد في الأدب العربي بموريتانيا في العصر الحديث، ص 76
48. محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، القبر المجهول أو الأصول، مساهمة في الكشف عن خصوصية السرد الموريتاني، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2000م.
49. محمد بن تتا، سبق ذكره.
50. محمد بابا ولد أشفغ،ولد سنة 1956، أديب وإعلامي موريتاني، يعمل بقناة الجزيرة القطرية.

قد تصل إلى خدش الحياء العام أحيانا أخرى واستخدمت فيه لغة محلية خاصة ذات أصول فصيحة[51] « وقد مثل لهذا الخط بالنصوص المنشورة في مجلة الآداب 1997، بينما مثل للثاني «برحم الأرض» لمحمد ولد أحظانا، و»أولاد أم هانئ» لمحمد بن تتا[52].

3,3 وإذا كانت هذه التجارب القصصية – كما زعمنا منذ حين– تتأبى على التحقيب والتصنيف، فإن بمقدورنا – من منظور التقاليد والقواعد المدرسية للنوع الأدبي– أن نبدي بعض الملاحظات:

منها أنه – بغض النظر عن الخصائص الفنية – فإن التراكم الحاصل لحد الساعة في مجال الكتابة القصصية، لا يشجع كثيرا على المجازفة بالحديث عن فن قصصي محلي تُتلمس سماته المميزة. ثم إن جزءا معتبرا من هذه المحاولات المنشورة لا يوحي الاطلاع عليه بسابق صلة (من كتابة أو تلق) للكاتب بفن القصة القصيرة. كما لا توحي لغة التعبير أحيانا (والكفاءات اللسانية لدى الفرد لا تتفاوت كثيرا) إلا بمستوى محدود من القدرة على فهم المكتوب.

ولعل هذا الأمر يلفي تفسيره في طبيعة المؤسسة الأدبية المحلية التي هي، حصرا، مؤسسة شعرية، تبسط سلطانها على من يتعاطى الشعر، وتترك الحبل على الغارب لمتعاطي الألوان الأخرى، إنكارا لها أو تجاهلا في أحسن الأحوال. بموازاة ما سبق، نجد العديد من المحاولات التي استوعبت قواعد النوع الأدبي استيعابا يمنحها المقبولية «من حيث الكيف» على حد تعبير الباحث محمد بن عبد الحي، ومنها نماذج استطاعت تجاوز الاستنساخ المدرسي للقواعد إلى تحقيق مستوى ما من الأصالة والإبداع. وتتوزع هذه الكتابات – على نحو ما سلف في حديث مولاي إبراهيم منحيان: يحتذي الأول في سماته الشكلية حركة القص القصير على مستوى العالم العربي، ويمكن التمثيل له ببعض نصوص محمد فال عبد الرحمن ومحمد ولد احظانا وأم كلثوم بنت أحمد وتندرج فيه بعض المحاولات الشبابية الواعدة ككتابات جمال محمد عمر ومحمد إبراهيم ولد محمدنا وأم كلثوم بنت المعلى. أما الاتجاه الثاني فيقوم على تجريب أشكال من السرد التراثي العربي كالأخبار والكرامات وعلى محاولة تطويعها للمضامين الواقعية. وقد سعى بعض دعاة هذا المنحى إلى الدفاع عنه بأنه «ليس يخفى أنه لا يسوغ فصل الاتجاهين السالفي الذكر عن السياق العربي العام. فالاتكاء على النثرية العربية الحديثة دون إيلاء الملمح اللغوي التراثي المحلي أهمية كان مساغه، أحيانا الخوف من إبراز الخصوصية القطرية، والسعي إلى ترسيخ النموذج المرتضى من لدن الكتاب على أنه «النموذج العربي» الأمثل. بيد أنه ينبغي ألا يفوتنا أن استثمار تقنيات الأشكال التراثية والمحكيات المحلية استثمارا فنيا مقبولا لا يكون عادة في مقدور المبتدئين لما يقتضيه من إطلاع على التراث وعلى تجارب الآخرين، ومن فقه بواقع المجتمع ونواميسه، ومن امتلاك لناصية اللسان. ويجد هذا المنحى مساغه في الإفلاس الذي منى به على المستوى العربي المشروع النهضوي العصراني، في تحقيق الانعتاق والنهوض، مما تجسد فنيا في رفض أشكال التعبير الغربية التي كانت تستنسخ، واستبدالها بأشكال تجريبية تلبي نفس الحاجة.

والتجريب – كما هو معلوم – أمر لا غنى عنه لتحديث أشكال الكتابة وتطويرها، بيد أنه ليس يخلو من محاذير: ليس أقلها خطرا ما أشار إليه بعض الدارسين من تحول الفنانين إلى بؤر طليعية تقدمية عاجزة عن التواصل مع المجتمع، معزولة، بفعل شراسة التخلف وقولبة الذوق العام وفقا للجماليات التقليدية. وما ينطبق على التجريب، ينطبق، من باب أولى، على ملاحقة صرعات التحديث وما بعد التحديث في آداب العالم.

من هنا، يكون لزاما، على كل كاتب اتخذ الالتزام بقضايا الأمة والشعب مذهبا أن يلجأ إلى الأشكال التراثية والمحكيات المحلية المتجذرة في ثقافة المجتمع لتكون قناة للتواصل، وسننا التبادل. ويهم كثير من المختصين حين يخيل إليهم أن التسامي على الملابسات المحلية هو سبيل الأدب إلى العالمية أو أن الصبغة المحلية تؤول بالأدب العربي إلى آداب عربية، والواقع أن استثمار التقنيات التعبيرية المحلية واللهجات العربية يستلزم، شرطا أول التمكن من اللسان العربي وثقافته[53] «.

هذه، إذن، عجالة حاولت أن تقدم لمحة سريعة عن لون تعبيري حديث النشأة على مستوى الثقافات العالمية، وهو أحدث نشأة على مستوى المجتمعات العربية (البدوية) وإن كان قد حقق في بعضها مستوى لافتا من النضج، كما قدم في بلدان أخرى، من بينها موريتانيا، نماذج واعدة.

51. يستعيد الباحث هنا ما ورد في كتاب الوسيط في الأدب الموريتاني الحديث ص 13.
52. القبر المجهول أو الأصول، مساهمة في الكشف عن خصوصية السرد الموريتاني، مرجع سابق، ص ص 92، 93، 94.
53. محمد بن تتا، واقع السرد الموريتاني، في مجلة الأديب العدد 01 محرم/ فبراير 2006 ص 70.

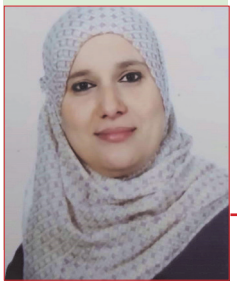

الدكتورة: انشراح سعدي / الجزائر

أسلبة الخطاب والتعدد الموضوعاتي في رواية «هجرة الظلال»

تعد رواية «هجرة الظلال» للروائي الموريتاني محمد بن أحظانا، رواية مربكة بداية من عتبتها الأولى، إذ اختار صاحبها أن يعلم القارئ أن لا مكان له ليستظل فيه تحت عمله، المتجاوز الصفحات الخمسمائة، إن لم يتمكن من فك مغاليقه. ويطاردنا الإحساس بالحرور مقابل الظل المفقود، ونحن نقرأ هذا النص المحمّل بالمضمرات من العتبة الأولى حتى الصّفحة الأخيرة، وفي كل مرّة نتصور أننا وصلنا لفك شيفرة النّص، «نتيقن أن للظلال على هذه الأرض حكاية لا تنتهي أبدا»(رواية هجرة الظلال)، كما قال الروائي في نصه البديع.

ولأنه لا يمكن للكلمة أن تكون في نص أدبي دون حمولة أيديولوجية وثقافية واجتماعية، ارتأينا أن نتناول في دراستنا:

1- التّعدد اللّغوي والصوتي في هجرة الظلال وفق مقاربة «باختينية»

لقد اعتبر مخائيل باختين: «أن التّعدد اللّغوي سمة بارزة في الرواية الغربية الحديثة؛ إذ يعد من بين أهم الأشكال التنظيمية والتكوينية للرواية على العموم، إلاّ أن هذا الشكل تكون في مسار التطور التاريخي للنوع الروائي في أشكال متعددة، فمثلا يتمظهر التعدد اللغوي داخل الرواية الانجليزية الساخرة humoristique في كل الخطابات الموجودة في ذلك العصر؛ فهذه الروايات توظف في حيّزها الروائي كل طبقات اللغة الأدبية المكتوبة والشفهية، لأنها بمثابة الموسوعة التي تضمّ كل شرايين وأشكال اللّغة الأدبية.»(م. باختين).

وهذه القولة حثٌ على قراءة النّصوص الأدبية وحمولتها الأيديولوجية بشكل مغاير من خلال أشكال اللغة المتنوعة، فلا يستعير الكاتب لغات أخرى يضمّنها نصه دون أن يجعل لها وظيفة هامة. ولا تخلو النّصوص العربية من ظاهرة التعدد اللّغوي؛ إذ كانت موجودة منذ بدايات هذا القرن ولكن ما يلفت النظر هو بروزها وكثافتها النسبية منذ بدايات السبعينيات مقرونة بسياق نقدي يسعى إلى استيعاب وتثمين ظاهرة التعدد اللّغوي في الرواية، فالتعدد اللغوي موجود في كل رواية و «يساهم في بناء كليتها وانسجامها اللذين لا يتحققان اعتباطا، لكن بواسطة الإدراك الواعي من قبل المؤلف لأرضية بناء الأسلوب النثري، فعليه أن يحسن سماع التنوع الحقيقي للغة في ظل المجتمع وإلا لكان نصه أشبه بالرواية، وليس إبداعا لرواية.» (باختين).

فالروائي غير الواعي بلغات مجتمعه لن يتمكن من الانفصال عن لغته والغوص في لغة الآخر ليطوّعها ويكيّفها لخدمة نياته والوصول إلى مقاصده، ولغة محمد بن أحظانا حملتنا بل حتّمت علينا اختيار هذا النوع من المقاربة، لنقف عند مظاهر:

1. -1 التّعدد اللّغوي والموضوعاتي في رواية هجرة الظلال.

صاحب المقطع السردي على دراية بحرفة التقاط الصمغ لأنه أسلب الخطاب في محاكاة للعالم بحرفة الصمغ، فهو يفرق بين الصّمغ الموجه للدواء والصمغ التجاري الذي يغمس في التراب من أجل البيع، وعارف بالأماكن التي يوجد

بها، وعليم بكيفية حفظه كأنه الخبير المتخصص.

وفي مقام آخر، أسلب الروائي لغته بلغة قرآنية تمثلت في ملفوظات لا يمكن للقارئ أن يخطئها قائلا: «أنا أعتقد اعتقادا راسخا لا تزحزحه الظنون أنه لولا نسياني لهذا الناقد المتربص، لمارس علي وصايته الهلامية ورعبه الكامن، فشغلني بمقاييسه، وأفسد عليّ متعة القص، ليربكني بموازينه ومكاييله التي تذكرني بمكاييل تجار الصمغ المطففة وموازينهم الخاسرة. لقد ألقمت كلماتي رملا لأثقلها على ميزانه. وأربيها في مكياله...» (رواية هجرة الظلال).

استعار الكاتب في هذا المقطع من أسلوب القرآن الملفوظات الآتية: (وصية، موازين، مكاييل، المطففة، الربا...)، فعبر عن وعي شخوصه باختيار ملفوظات مسلسلة تصب في نفس الإطار، لكنه بقي محافظا على لغته الأصلية.

كما لامس الروائي محمد بن أحظانا إلى جانب أسلوب التجار ومفردات القرآن الكريم، الأمثال الشعبية. نجد أثر ذلك في استخدامه مَثل «الساكت ناكت»، للدلالة على الشخص قليل الكلام الذي يعمل في صمت: «وهذا الساكت الذي تراه يحصي أنفاسي وأنفاسك يطبق فاه على جمرة ملتهبة، سينفخ فيها بكيره فتلتهب عند أول منعرج تمر به.

هذا ؟ آه.. « الساكت ناكت».. لكن دعني منك ومنه ومنهم .. فالكائنات التي أحدثكم عنها مراوغة.»(ر.ه.ظ)

2.1. ويؤسلب الروائيّ الخطاب وهو يتحدث عن المستعمر والطرق التي كانت تستخدم من أجل السيطرة على المناضلين وإقناعهم بمختلف الأفكار كي لا يؤثر فيهم المحيط الخارجي: «-إنه من هذه الحركات السرية، التي تعتمد تحليلا لكل واردة وشاردة تحدث في الوطن أو في العالم، فيصف مناضلوها كل فرد أو جماعة أو طبقة، حسب قوالب جامدة كأنها العشرون الواجبة في العقيدة، لكنهم لا يصقلونها إن علاها صدأ أفطوط الساحلي، خوفا من التهتك.. يحافظون على أمور لا ينفكون عنها مهما كان، وهي أن يحدثوا مناضليهم دوريا برزمة الآراء التي يجب تبنيها حول أي شيء يخطر على بال مناضل متوسط المتاع المعرفي، ليحصنوه ضد أي وسواس يتسلل إلى ذهنه من نقاش طائش مع مناضل آخر، في حركة سياسية سرية أخرى.»(ر.ه.ظ).

يستعير الروائي أسلوب السياسي ليعرض بها فكره، هذه النماذج التي اخترناها من النص (أسلبة لغة التاجر، لغة القرآن، لغة السياسي)، تظهر لنا قدرة الروائي على استعارة لغة غيره وتضمينها في خطابه الروائي بشكل سلس وبجمالية بارزة.

1 3- المحاكاة الساخرة في «هجرة الظلال»

تعد الباروديا (المحاكاة الساخرة أو parody)عند باختين، نوعا من الأسلبة التي تكون فيها قصدية اللغة مشخصة، بحيث يجعل اللغة الأولى تعمل على تحطيم الثانية، ويشترط في الباروديا أن تعيد خلق لغة بارودية وكأنها كل جوهري متوفر على منطقه الداخلي، وكاشف عن عالم متفرد مرتبط باللغة التي كانت موضوعا للباروديا.

وعليه ففي الباروديا تقليد الأساليب يختلف عن الأسلبة التي يحدث فيها ذوبان كلي (تقديم لغة في ضوء لغة أخرى مضمرة)، بينما المحاكاة في الباروديا تقوم على فضح وتحطيم اللغة الأولى (عدم توافق نيات اللغتين). ونجد أن باختين قد وسع من طبيعة هذه المحاكاة؛ بحيث لم يكتف بمحاكاة أساليب الغير، وإنما تعداها إلى أنه: «يمكن أن نحاكي محاكاة ساخرة أسلوب الغير بوصفه أسلوبا. يمكن أن نحاكي محاكاة ساخرة طريقة نموذجية على المستوى الاجتماعي أو الشخصية على المستوى الفردي، طريقة في الرؤية، في التفكير، في الكلام...»(باختين).

فطبيعة هذه المحاكاة عنده يمكن أن تكون متنوعة لدرجة كبيرة.

نلمس من خلال المقطع السردي محاكاة ساخرة: «حشرجت ثانيت زاحفة على سرير الجريد العتيق خلف ساعديها المعروقين كسعلاة هرمة، وخاطبت النسوة بشفاه متهتكة متلاصقة، لا تنفرج إلا لتنطبق على دردها:

- ها أنتن تدرن على أنفسكن كالغرانيق المخبولة، فلا تجدن غيري.

رأت أم الولد الحائم على الصوم وهي تتوق من وراء الباب. فكشرت عن لثة خربة، وأشارت بيدها اليابسة إشارة طرد:

-لعن الله فتاك أيتها المرأة المنحوسة.. لقد أرعب ظلال بيتي الهائنة فهجرتني. ألم تدخليه «السامية « بعد؟ أهل هذا الزمان لا يعبأون بالتعاليم الدينية الأصلية، ولذا حلت بهم اللعنة التي لا مرد لها». (ر.ه.ظ).

تسخر «ثانيت» من النسوة اللواتي قصدن بيتها بعد أن هجرتهن ظلالهن، وهي التي احتفظت بظلالها دون أعنهن، ولكنها استشاطت غضبا وهي ترى المرأة المنحوسة التي أرعب ولدها ظلال بيتها الهائنة بعد أن بلغ الصوم وانتهك حرمته.

وتكمن المحاكاة الساخرة في سخريتها من النساء وسخريتها من نفسها التي تحمّلت خطيئة الولد وهي تطرح سؤالها: -ألم تدخليه السامية بعد؟ فما المقطع الأول من الشاهد إلا تمهيد لمحاكاة قصدية لأسلوب أهل قرية هجرتها ظلالها، فأعطت ثانيت للقارئ سبب هجرة الظلال في أسلوب ساخر من مجتمع بأكمله، وهو الخطيئة مرتبطة بخرق تعاليم الدين.

تكمن السخرية هنا في سخرية الموقف والمفارقة؛ فثانيت الساخرة من النسوة اللواتي هجرتهن ظلالهن، وهي تعرف سبب هروب الظلال وهجرتها، تهرب عنها ظلالها وتطالها اللعنة بسبب ولد انتهك حرمة الصوم، والوظيفة الأساسية لهذه المحاكاة الساخرة هي إبراز إيديولوجية الروائي الناقم على تخلي البشر عن التعاليم الدينية.

وقد مارس الروائي السّخرية في عدّة مواطن، من بينها سخرية المرأة من المعزاة المدعوة الليحاسة التي تأكل الأخضر واليابس: «مع أن المرأة تعرف أن أهل الحي يدعون المعزاة: الليحاسة لكنها لم تشأ أن تشهر بها أو تبخسها فتسيء إليه وهو في كوخها، أو يسيء إليها هو بإطلاق لقب بغيض يخدش شرفها أمام الحلقة، إذ لكل أحد هنا لقب بغيض يغيظه، لا يعلم به إلا يوم ينخرط في منابزة علنية:

« اللي...» أعني معزاتك؟ مرت هنا في الصباح الباكر.» (ر.ه.ظ).

كانت المرأة على وشك السخرية من المعزاة بلقبها الذي تدعى به لكنها تراجعت خوفا من أن تحصل على لقب لا يظهر إلا فيما أسماه الروائي المنابزة العلنية، لكن هذا لم يمنعها من السخرية منها حين نطقت أول الاسم ثم قالت: «أعني معزاتك؟».(ر).

وفي مقام آخر قال قارئ يدّعي أنه طبيب تقليدي متمرّس ساخرا من المستعمر: -»ذا دليل دامغ على تغذيهم بالصمغ لأنه طارد للريح باتفاق أطباء القطر، وحسب التجارب. أكثر من ذلك فإن إضافة الحصا إلى مأكل المستعمرين ستؤذي أضراسهم التي يستحقون بها قيم الناس ويقضمون كل شيء عثروا عليه في مغارتهم الهوجاء، وحتما ستتأذى أمعاؤهم المدلّلة الملساء بعد ذلك، وشحمات كلاهم البيضاء لن تسلم قطعا.»(الرواية).

أخذ القارئ وقته في السخرية من المستعمر الذي كان يأخذ الصمغ من السكان الأصليين، فذكر فوائد الحصا التي تدمر أسنانهم التي يستحقون بها القيم وأمعاءهم المدللة وكلاهم البيضاء، بسبب أنهم طبقة رهيفة لا تحتمل قساوة ما يعيشه السكان الأصليون.

يحرّر الروائي نصه من سلطة اللّغة الواحدة من خلال تنوّع لغوي يعكس واقعا اجتماعيا لا يصلنا إلا عبر رؤية الروائي لمجتمعه، وحين يجعل ابن أحظانا لغة شخوصه ساخرة، يظهر لنا الهوة بينها، جاء في هجرة الظلال: « لكن قل لي: كيف تصف الإنسان أنه ربّ الدسيسة، كأنك من القائلين بنظرية المؤامرة التي نسمع بها كثيرا هذه الأيام في إذاعة لندن؟ وأثارتها الحلقة قبل قليل.

-آه.. آه.. ذكرتني « نظرية المؤامرة» التي تلوكها – ليس تصغيرا لك- بقصة رأس العقرب المفقود.

-أليس للعقرب رأس؟

- لو كان لها رأس ما لدغت بذيلها؟ أنت عاقل أم مغفل؟ تارة أقول إنك عاقل وتارة أقول إنك تأكل التبن والخيوط البالية...»(الرواية).

هاجم المتحدث الشخص المستمع وأجابه بسخرية وتهكم ونعته بالمغفل وآكل التبن، لأنه يظنّ أن للعقرب رأسا، والآخر يرى أن العقرب لا تمتلك رأسا وهذا سبب وجود مكان اللدغ في ذيلها، هذه الهوّة بين الشخوص الروائية هي الهوة بين الناس في الواقع، هوّة لا تفرّق بين البشر ولا تشترط أن يكون الشخص بعيدا حتى نسخر منه إذ ها هو زوج تنهنان يسخر منها قائلا:

«قال لها وهو ينظر في عيون المحدّقين به من رجال ونساء، ووجهه محتقن بالتكذيب ناضح بسخرية لئيمة، وضحكه الغادر يغالبه فيغلبه:

-أصدق امرأة عرجاء وأكذب كلّ هؤلاء الرجال والنساء الأسوياء، كبارا وصغارا؟»(ر).

سخر زوج تنهنان منها لأنها راحلة مع أولادها، إذ قيدت هودجها بنسرين من أجل الهروب من طوفان رملي سيقضي على كل شيء حيّ، لكنه لم يصدقها وكذّبها أمام الناس قائلا إنه لا يريد تصديق امرأة عرجاء ويكذب كل النساء والرجال الأصحاء، وكأني بعرجها يحول بينها وبين التفكير والتخطيط السليم.

1-4. شعرية الأجناس المتخلّلة في هجرة الظلال

إن الرواية جنس تعبيري مفتوح على مختلف الأجناس الأدبية وغير الأدبية، وهذه سمة من سماتها البارزة؛ إذ «تسمح بأن تدخل إلى كيانها جميع أنواع الأجناس التعبيرية، سواء كانت أدبية: قصص، أشعار، قصائد، مقاطع كوميدية. أو خارج – أدبية: دراسات عن السلوكيات، نصوص بلاغية وعلمية، ودينية، إلخ»..»نظريا فإن أي جنس تعبيري يمكنه أن يدخل إلى بنية الرواية، وليس من السهل العثور على جنس واحد لم يسبق له، في يوم ما، إن ألحقه كاتب أو آخر بالرواية...،»(باختين).

وبذلك كل جنس يدخل إلى الرواية يحمل معه لغته، ويعمق تعدّدها اللغوي:

«وكثيرا ما تكتسب لغات الأجناس الخارجة عن الفن التي تدخل الرواية أهمية بحيث ينشئ إدخال جنس ما (كالرسائل مثلا) عصرا كاملا ليس في تاريخ الرواية وحسب، بل في تاريخ اللّغة الأدبية أيضا.» (باختين).

ولهذا ينبغي البحث في طبيعة هذه الأجناس المتخللة؛ إذ: «يمكن أن تكون موضوعية شيئية بالكامل أي محرومة حرمانا تاما من مقاصد المؤلف (أي أن الكلمة لا تقوّل هذه الأجناس بل تعرضها فقط كأشياء)، إلا أن هذه الأجناس تعكس في أكثر الأحيان مقاصد المؤلف بقدر أو بآخر.». (ب).

فلا يقحم الروائي هذه الأجناس دون وظيفة هامة كانت أم بسيطة، وقد تنوعت الأجناس الأدبية المتخلّلة الأدبية منها وغير الأدبية في روايتنا المدروسة ونبدؤها بالشعر؛ إذ يعدّ من الأجناس الأدبية المتخللة للرواية الأكثر شيوعا ورواجا، وفي هجرة الظلال يجد القارئ نفسه أمام مقاطع متنوعة ضمت أشعارا مختلفة: «لا بأس بالذكريات ما دمت وحدك، ما المانع من أن تتذكر؟ وهل نستطيع ألا نتذكر؟ نتذكر ماضينا مرئيا، نسينا للحظة أننا نجره خلفنا بكل حرص وحنو !.. آه .. قال الشاعر الفائت:

دهر مضى جمعت لنا أيامه
شمل السرور فهل له من مرجع؟

وقال الأمير أحمد سالم ولد محمد الحبيب التروزي وهو يدور الزمن مع مشاعره:

منصاب الدنيا تثن
بالليل فايت فيه
من طربي واتم السن
في ابلده لين انجيه»(ر).

أخرج محمد بن أحظانا البيت الشعري الأول من سياقه الأساسي، وهو بيت للشاعر الموريتاني محمدو بن محمدي العلوي(1827-1856) من قصيدة في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث استعار منها بيتا يتحدث فيه صاحبه عن زمن السرور متسائلا عن إمكانية عودته. وهذا الاستدلال شأنه شأن الاستدلالات اللاحقة، وإن جاءت مزيجا بين الفصحى واللهجة الموريتانية تصبّ في نفس النهر، وظّفها الروائي في تعظيم قيمة الزمن الذي لن يعود بمسراته ومساوئه. ويعدّ الزمن من أصول النعم: «من أجلّ أصولها وأغلاها: نعمة (الزمن)...فالزمن هو عمر الحياة، وميدان وجود الإنسان، وساحة ظلّه وبقائه ونفعه وانتفاعه».(ر).

الموكب الثقافي
مجلة - علمية
نصف سنوية - تصدر عن اللجنة الوطنية للتربية والثقافة والعلوم
CNECS

وحين يرتبط الأبطال برحلة البحث عن الظلال المفقودة نعرف أن استغلال أصحابها للزمن استغلالا سيئا هو ما أوصلهم لذلك.

ومحمد بن أحظانا مسكون بالزمن ويظهر ذلك على لسان شخوصه الذين وجدوا في الشعر تعبيرا عما يدور بدواخلهم؛ ففي موطن آخر يقول الروائي: «لم يبال محمد المعلوم بالتدخل الجانبي للرجل المتمهل فالآذان صماء في هذه المناحة. حتى ولو كانت مشرعة:

وقالت البراعة: الفات من أيام
يا سعد الجاهم من قدام».(ر).

وفي موطن آخر جاء: «سؤال مطروح إلا أن القائل قال:

منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى
وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا».(ر).

إن وجود الشعر في النص الروائي كجنس متخلّل فيه، يؤثر فيه انطلاقا من كون الشعر يدخل النص الروائي وهو يحمل معه لغته الخاصة، فتكسر من نيات الروائي وتحدّ من سلطته؛ إذ يعبر الشعر المتخلل للنص الروائي عن وجهات نظر أصحابه فيحدث تنوع الرؤى في النص.

كما تخللت القصةُ الرواية المدروسة، وقد مزج بن أحظانا ببراعة بينهما دون الإخلال بالمعنى العام، ويمكننا أن نسمي القصص التي اخترناها من الرواية بقصة العقرب والجعل، وقصة الرتيلاء وقصة تنهنان.

جاء في قصة العقرب والعجل:» كانت العقرب قد نامت الصبيحة، فخرجت متأخرة من مخبئها، وذهبت متهادية الذيل كناقة عشراء، إلى حيث تقسم الرؤوس، فلقيت الجعل عائدا فسألته متثائبة من نعاس سراها البارحة:

ألا تزال الرؤوس موجودة أم نفدت؟

فأجابها متعجلا وهو يتشمم رائحة هبت عليه من قبل بعض الدواب:

-لم تنفد لكن لا يوجد منها إلا مثل رأسي هذا.

شالت العقرب بذيلها عائدة وهي تتمتم:

- إذا لم يكن قد بقي من الرؤوس إلا مثل رأسك فالأفضل أن أبقى بلا رأس. ولذا بقيت بدون رأس إلى الأبد»(الرواية).

تدور أحداث القصة حول الجعل الذي يبحث عن رأس لنفسه كي يشتم الروائح وكي يحرّك رأسه بشكل أفضل، لكنه لم يحصل عليه، فأثناء رحلته لم يجد سوى رأس كرأسه فعاد أدراجه وفي الأثناء التقى بعقرب تبحث عن رأس لها أيضا، فسألته عن الرؤوس التي بقيت فأجاب أن مثل رأسه هو الوحيد المتبقي، فاختارت أن تقضي بقية حياتها دون رأس على أن تحمل رأسا مثل رأسه. وإذا تأملنا المقطع وجدناه قصة قصيرة كاملة معنى ومبنى.

أما قصة الرتيلاء فيمكننا قراءتها بمعزل عن سياق الرواية دون أن نشعر أنها مجتثة من نص آخر شأنها شأن القصتين السابقة واللاحقة، فعناصرها عناصر قصة مكتملة فنيا: «في صباح زواج الرتيلاء الخبخابة، استيقظ زوجها قبل أن تستيقظ، فتستر عنه أنيابها البارزة كما كانت تفعل دائما وهي «هجالة، أو يمهلها قليلا حتى تنظر في مرآتها وتصلح من شأنها، وتهذّب هنادمها وتتقنع بقناعها. نظر بفزع واستبشاع إلى الأنياب البارزة المعقوفة ذات النهايات السوداء الحادة، وفلجها الفظيع، والزغب المنتشر على شفاهها الشرماء، فالتفت يمينا ويسارا متيقنا أنها سعلاة تلبست روح زوجته: لعن الظلام. أعاد نظرة إلى عروسه فلم ير غير تلك الملامح البشعة.. ولم يسمع غير شخيرها المزلزل

-هاه؟ هذا هو الذي جعل أمها ترفض بعناد أن أراها قبل القران؟ وجعلها ترفض كشف لثام ملحفتها قبل الإقدام على الزواج بها!

لم يطل العريس التفكير فالوقت من ذهب... قرر أن يهرب من فوره...أعطى ذوائب أرجله للريح، منشدا بيت العربي الفائت:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى***
وفيها لمن خاف القلى متحول»(ر).

تروي قصة الرتيلاء قصة العريس المخدوع في زوجته وإن كانت ابنة عمته، والخديعة تكمن في عدم رؤيتها رؤية شرعية قبل الزواج، وهذا حق كفله له الشرع وحرمته منه أم العروس حتى تتستر على شكل ابنتها المنفّر، ومن ثمّ مارست كل الحيل حتى يتم القران دون أن يراها.

وفي موضع آخر من الرواية، جاءت قصة تنهنان مكتملة فنيا « كانت (تنهنان) قد علمت من رئيّها (منراس) قبل سنة من هبوب الريح أن الطوفان سيهبّ على الأرض من كل الجهات في وقت واحد، فيواري من يمشي أو يدبّ أو يزحف على ظهر الأرض. لا بالماء وإنما بالرمل الناعم، فكرت ثلاثة أيام وأسرّت في نفسها ما أسرت. قرّرت أن تصنع هودجا كبيرا، وكانت تعرج في مشيتها عرجا خفيفا، وكلّما رأتها النسوة تعرج خارجة من بيتها إلى النجار (أنمذ) ضحكن منها حتى أمسكن خصورهن الريانة ألما....»(الرواية).

حمل المقطع السابق حكاية تنهنان التي عرفت من رئيّها منراس أن هناك طوفانا رمليا سيجتاح القرية ويهلك أهلها، ما جعلها تبني هودجا يحملها إلى حيث تحتمي في حصن جبلي تأوي إليه هي وعائلتها الجديدة، بعد أن جمعت الأكل والحيوانات فيه، رغم سخرية أهل القرية منها، وعند اقتراب الطوفان ربطت هودجها بنسرين عملاقين وطارت بعيدا عنهم ونجت ومن معها فسميت بحواء الصغرى.

تضمنت القصص المختارة -باعتبارها نماذج على تخلّل القصة رواية هجرة الظلال-حادثة واحدة وأشخاصا محدودين، وهذه من الخصائص الفنية للقصة المختلفة عن الرواية المتنوعة الأحداث والشخوص. والخبر الوارد في القصص المذكورة أعلاه تتصل أجزاؤه بعضها ببعض ويشكل جمعها معنى كليّا، في حين أن الرواية تجمع المقاطع المنفصلة ليتشكل المعنى ويتضح، وكذلك حين يتعلق الأمر بالنسبة لحركة السّرد، فهي سريعة في القصص المذكورة متباطئة لدواع فنية في الرواية، لذلك اخترناها كمتواليات قصصية في نص هجرة الظلال لمحمد بن أحظانا، عزّزت فكرة أن النص الروائي نصٌّ مفتوح حاضن لكل الأجناس الأدبية وغير الأدبية، وسنكتفي في مسألة الأجناس المتخللة بالشعر والقصة بالرغم من ثراء النص بالأسطورة والمثل الشعبي والرحلة.. وغيرها من الأجناس الأدبية الأخرى، كما سنشير فقط إلى أن النص مشحون بالخطابات غير الأدبية، كالخطابات الدينية المضمرة والظاهرة انبنت الرواية

عليها؛ فلولا الخطيئة والبعد عن الدين لما فرّت الظلال وهاجرت، كما لم يخل النص الروائي من الخطابات السياسية بحكم الجزء المتعلق بالاستعمار، وحيث يكون الاستعمار تتفجر آفات المجتمع، فكان الخطاب الاجتماعي بشكليه المضمر والظاهر مهيمنا على تمفصلات السّرد في الرواية.

إن من المسلّم به أن كلاّ من التهجين والأسلبة والباروديا والأجناس المتخللة، تقنيات أعطت تنوعا اجتماعيا في المتن، بحيث مكّنت بن أحظانا من استحضار خطاب الآخر في ملفوظ واحد، وهي تقنيات شديدة الاتصال بعضها ببعض.

2- التعدد الموضوعاتي في رواية هجرة الظلال (رواية تفاعلية)

نتناول في هذا الجزء من البحث التّعدد الموضوعاتي أو الانبثاق الموضوعاتي القائم على تواتر مجموعة من التيمات المتنافرة واللامتجانسة في العمل الأدبي، إذ ربط المبدع بين تيمات متباينة في نص متناسق وهذا ما لا يتأتى للكاتب بسهولة، بل من شأنه أن يخلق فروقات بين نص وآخر؛ «فأعظم عقبة تعترض طريق الفنان هي خلق كيان فنّي موحد متكامل من مواد متنوعة ومتنافرة وغريبة عن بعض بعمق.»(باختين).

وهذا ما قام به بن أحظانا؛ إذ جمع بين موضوعات مختلفة صبّت في موضوعة كبرى هي الهجرة ولا عجب في ذلك، وهو من وسم نصّه بهجرة الظلال. ومن بين الموضوعات التي جمع بينها الروائيّ بخيط رفيع ليشكل لنا نصا منسجما برغم التناقضات، موضوعة الفراق المرتبط بالأشخاص والأماكن والأشياء.

2-1. موضوعة الفراق:

شكلت موضوعة الفراق في نص هجرة الظلال عصبا هاما في النص، حمل من خلاله مشاعر الأبطال فرادى وجماعات، وأبرز المقاطع المؤثرة في النص هو المشهد الذي اختفى فيه ابن تانيت الصغرى عند انشغالها بجدتها: «-ذاب الولد في الحشد يا جدتي ذاب كلية. خسفت تحته؟

-لم تجديه؟ ستجدينه أو يجده غيرك. لا شيء يضيع في هذا العالم، يا حفيدتي الغالية، حتى ولو ضاع منّا.... كانت تتقدم خوفا من دهس القطار البشري لها. لم تره. أيكن رأته؟..»(ر).

لم تستطع تانيت الصغرى أن تلتفت باحثة عنه خوفا من هاش المتوعد كل من التفت إلى الخلف في رحلة بحثه عن ظلاله، وافترقت الأم وابنها إلى الأبد، أكملت هي دربها نحو أودي أكلاب وبقي هو في الغابة.

نلاحظ أنه كلما تقدم السرد كلّما ضاعف الروائي جرعة فراق الأحبة والأمكنة: «لم تخرج السيدات إلاّ بعد أن تزينّ بحليهن المكنون، وأوقدن بقايا البخور، وتعطرن من عطر الورود ومرارة غزال المسك، ونثرن الغوالي في ثيابهن .. لمن تتزين يا نساء الحفرة؟ ذلك السؤال، فالرجال...

أخيرا ودعن ملامحهن على صفحات المرايا بنظرة متعجلة: خرجن من البيوت النافقة وقد أثقلهن الحلي...»(ر.ه.ظ).

لم يكن خروج النساء والأطفال من مدينة الحفرة بالأمر الهيّن؛ فبعد أن فقدن أزواجهن وظلالهن، هاهن يفقدن مدينتهن وأبين أن يخرجن إلا في كامل زينتهن اعترافا لهذا الوطن الجميل قبل أن تصيبه لعنة هجرة الظلال: «يوم كانت النساء تسيّرن القوافل.. دز.. ويتخلف الرجال للرعي وخدمة البيوت وسقي البساتين والماشية..دز .. يوم كنا نعبر الأرجاء بحثا عن الماء والكلأ للدواب.. دز.. ونقود قوافل التجارة.. دز.. ونفعل ما نشاء.. يا نساء الحفرة..»(ر).

أدخلنا الروائي في جو ما قبل الهجرة، فمهّد لنا بهذه الموضوعة الصغرى جسرا لموضوعة كبرى وهي الهجرة.

2-2- موضوعة العقاب

عمد بن أحظانا في نصه الروائي إلى التركيز على العقاب الذي حلّ بأهل المدن بسبب مخالفة التعاليم والقواعد: «أهل هذا الزمان لا يعبأون بالتعاليم الدينية الأصلية، ولذا حلّت بهم اللّعنة التي لا مرد لها».(ر).

عاقبت الآلهة عبادها بسبب عدم التزامهم بالتعاليم الدينية وسخريتهم منها، فألقت عليهم لعنة لم يستطيعوا التخلّص منها: «أصيب تسعة من رجال الحومة بجذب البقر، وهو جذب يخالط عقولهم» (الرواية).

لم يقتصر غضب الآلهة على أخذ الظلال فقط، بل تعدى ذلك إلى نشر الأمراض الجسدية والعقلية للثأر من الناس التي لم تتبع التعليمات: «الظلال تتحول إذا أتى أحد فعلا لا يرضي الرب.. إذا جلسوا تحت ظلّ منزل ظليل هرب ظله عنهم...»(ر).

ترافق الظلال أصحابها طيلة حياتهم، وقد تغادر إذا قام الفرد بأحد الأفعال التي تغضب الرب فيلقي عليه غضبه ويعاقبه بأخذ ظلّه منه وكل الظلال التي تحيط به.

2-3 موضوعة العجائبية

مزج ابن أحظانا بين اللامتجانس في الرواية فاستعان بالعجائبية من أجل إضفاء التشويق على العمل، واستطاع أن يجعل لها معبرا في مخططه السردي يشدّ به القارئ ويدهشه: «تركن العجوز الى ظل شجرة عضاه تداعب أغصانها صفحة السماء، وتبسط إزارها الصافي مظلّلة صخور الجبل البنيّة. لم تكد العجوز تقترب من الظل الريان حتى سحبت الشجرة العملاقة إزارها الناعم بخفة..»(ر).

جعل ابن أحظانا شجرة عضاه تسحب ظلها كي لا تستظل تانيت بظلها وهي من اللواتي عوقبن بهجرة ظلالهن عقابا على المعاصي المرتكبة في مدينة الحفرة، وإن لم تكن لها مسؤولية مباشرة. وفي موطن آخر يقول الروائي: «عند ذلك تناوله تانيت إناءها (معين الأقدار)، وعندما يرتوي منه حتى تئز أذناه وتجحظ عيناه، ويتنهد بعمق. يصب لها جرابه على كاشف السر المكنون...»(الرواية)، فلا وجود لإناء اسمه معين الأقدار يعين على كشف المستور، غير أنه تمّ التركيز على الأسطورة وهي تمثل جزءا مهمّا في ثقافة الشعوب منذ القديم، ولقد عرضنا لبعض النماذج فقط كي نظهر التعدد الموضوعاتي في الرواية وكيف تمكن الروائي من الجمع بين مختلف الخيوط لينسج لنا نصا محمّلا بإيديولوجيات مختلفة دون أن يؤثر ذلك على تناغمه.

2-4 موضوعة الهجرة

من المسلّم به أنّ موضوعة الهجرة من الموضوعات المهيمنة على السرد العربي، لما تعيشه الأوطان العربية من أوضاع حفّزت الرغبة لدى شيوخها قبل شبابها في الهجرة من أوطانهم بحثا عن حياة أفضل. ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض النصوص الروائية التي انبنت على موضوعة الهجرة: كـ(الحي اللاتيني) لسهيل إدريس و(القانون الفرنسي) لصنع الله ابراهيم، و(شيكاكو) لعلاء الأسواني، و(القوس والفراشة) لمحمد الأشعري، و(شرق المتوسط) لعبد الرحمن منيف... لكن لم يشأ الروائيّ الموريتانيّ إلا أن يخرق أفق القارئ بأن يجعل الهجرة الأولى في النص هجرة للظلال لا للبشر، والهجرة التي تليها هي هجرة البشر في مطاردة لظلالهم الهاربة. خرق جعل من نص ابن أحظانا نصا مربكا يكسر أفق انتظار القارئ كلما تقدّم في السرد. نعرف في الصفحة الأولى من السرد أن الهجرة هي هجرة ظلال فعليّة، ولم يكن العنوان مفخّخا بل القصد من ورائه يتطابق مع اللفظ، جاء في النص الروائي: «ما هذا الحشد الهائل من النّساء والأطفال، المتدفقين كسيل سكران، تترامى به شعاب (تنمارت)، يقذف به الجبل، يلوكه العناء فيعتصر ملامح نسائه المهزوزة الساهمة، ال..فاتنة؟ ...ألم تسمع بخبرهم قبل اليوم؟ هذه بقايا المصيبة التي حاقت بمدينة (الحفرة) لقد هاجرت ظلالها بعد أن غضب عليها ربها، ذهب رجالها في اتجاه الجنوب الشرقي لاهثين خلف ظلالهم ليعيدوا إليها رشدها...»(رواية هجرة الظلال).

في هذه المتتالية السردية، وصف لسيل النساء والأطفال المهاجرات من مدينة الحفرة في غياب الرجال، وإجابةٌ عن تساؤل الكاتب حتى يوضع القارئ أمام المفاجأة إن لم نقل الصدمة؛ فعلا إنّ الهجرة هجرة ظلال هربت من أصحابها، فاستحالت الحياة إلى جحيم: «يا ويل الرجال، ويا ويح النساء، ويا بخت الأطفال...ياحر الحفرة ويا شيها و يا كيها...خربت الحفرة خرابا... ورجمت رجما»(ر).

تشير الملفوظات التالية: (حر، شيها ، كيها - رجما..) في المقطع السابق إلى الحرور وهو عكس الظلّ إذ يقول عز وجل ﴿وما يَسْتوي الأعْمَى والبَصيُر ولَا الظُّلُماتُ ولا النُّورُ ولا الظلُّ ولا الحَرُوُر﴾، فالظلال نعمة من النّعم التي منّ الله عز وجل بها علينا، وهذه حقيقة لا تحتاج لتأمل كبير إذ لا ينكر أحد منا الفرق الكبير بين الأماكن المظلّلة والمشمسة.

إن الظّلال في الرواية المدروسة لم تهاجر دفعة واحدة ومن غير سبب، ففي المقطع السردي اللاحق، يعلمنا ابن أحظانا أن بيت «تانيت» آخر بيت هجرته ظلاله، بسبب معصية ارتكبها غيرها، فالظلال هجرت مدينة «الحفرة» بعد أن ارتكبت المعاصي ولم ترتبط حسب ما فهمنا من مضمر الخطاب بصاحب الخطيئة، فالمهمّ هو أن تجد الخطيئة ظلا تهجر صاحبه حتى تكون اللعنة عامة: «...لأن بيتها أصيب بعدوى اللعنة التي حلّت بالبيوت فهجرها ظلها وسكنها القرف...»(ر).

تانيت التي فقدت ظلال بيتها بلا ذنب ارتكبته هي من أمرت النسوة بالهجرة بحثا عن ظلالهن: «تانيت الكبرى، تيقني أن هذه الهضبة تطردنا، فدعي عنك التلكؤ. لا ظل يقبل أن نتفيأه اليوم مهما كان. اصبري على السير معنا قليلا لأنك إذا تخلفت هنا ستهلكين في الشعب المسنّن ويهلك هذا الحشد البشري، فأنت من أمرنا بالهجرة في إثر الظلال».(ر).

وفي رحلة البحث هذه، لا ظلّ يقبل أن تتفيأه النسوة. هي اللعنة غير المرتبطة بالمكان وإنما بهنّ حيث حللن.

في موطن آخر من السرد نعرف أن الروائي الذي نقل لنا حكاية مدينة الحفرة، هو حفيد الجد الأربعين (أمكرار) الذي هاجر مع النسوة طفلا تحمله أمه على كتفيها»..(ر)، أن جدهم الأربعين (أمكرار)، خرج مع نساء وأطفال مدينة تدعى (الحفرة)، وهوطفل. «أين الحفرة؟ لماذا خرجت النساء وحدهن دون الرجال؟ هل تقاتل الرجال لسبب تافه أو جليل حتى هلكوا عن بكرة أبيهم؟ أم أصابهم طاعون نجت منه النساء واستحيا من الأطفال؟ إن الأوبئة كالبشر تستحيي أحيانا من بعض الناس، لسبب مجهول.. أو لقدر معلوم.. من أين؟ ذلك ما لم أعرفه يا حفيدي! ما أعرفه يقينا أن جدك الأربعين خطف من أرض جبلية بعيدة في الشمال». (الرواية).

إن هجرة الظلال لم ترتبط بأهل مدينة الحفرة فقط بل كانت مصير الآثمين في الرواية وفي أزمنة مختلفة بأرها الروائي: «حصل الاتفاق على أن لعنة البطر بنعمة العافية توطنت نفوس العباد فأفسدتها. لمّا مات العتاة في جبل النجاة من طوفان الرمل، هجرت الظلال أبناءهم جنوبا وتركتهم يتامى ظلال، لا ملجأ لهم، تلاحقهم أفاعي (الذراع)، وثعابين (زيك).

خرج نسل أيتام الظلال خلف المغضوب عليهم، يتقفى آثار ظلاله المتساحبة، فانفتحت بوابات الزمن من بعدهم على هجرات ظلال متتالية لا يخلو منها عصر في هذه الأرض.»(هجرة الظلال).

يؤكد هذا المقطع السردي أن الظلال ستهجر كل من يبطر بنعمة العافية ولذلك ينتهي العمل بهجرة ظلال أخرى: «لم يكلّمهم... كان يشير بسبابة متصلبة إلى مكان ظلّه المتلاشي، ويصيح بخبال: - تلاشى.. م ..م ..؟»..

ليؤكد لنا في فضاء سردي تجاوز خمسمائة (500) صفحة أن للظلال في هذه الحياة حكاية لن تنتهي.

ثبت بالمصادر والمراجع

- محمد أحظانا
رواية هجرة الظلال
نشر سلسلة إبداعات عر
دائرة الثقافة والإعلام. حكومة الشارقة.
الإمارات العربية المتحدة.

- ميخائيل باختين:
الخطاب الروائي.
ترجمة د. محمد برادة.
القول في الرواية.
ترجمة يوسف حلاق.
الماركسية وفلسفة اللغة.
ترجمة: محمد البكري
د. يمنى العيد.
شعرية ديوتوفسكي
ترجمة، جميل نصيف التكريتي.
مراجعة الدكتورة حياة شرارة
الملحمة والرواية (مقال).

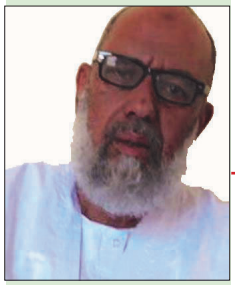

بقلم: د/ محمدن بن أحمد بن المحبوبي

الدبلوماسية الثقافية لدى الشناقطة
محاولة لتتبع الأثر وتحديد دائرة الإشعاع

يسعى هذا الجهد إلى إبراز جانب من إسهام الشناقطة في تثقيف أبناء الحواضر المصاقبة لأرضهم، وتلك البعيدة عن حدودهم؛ مستعرضا بعض صلاتهم المعرفية بأشقائهم من العرب وإخوانهم من الأفارقة، فمن المعلوم أنهم خلال ظعنهم وارتحالهم تلبثوا غير يسير بمناطق الجوار والاقتراب، كما أقاموا بمناطق البعد والاغتراب مؤسسين علاقات ثقافية بالغة الأهمية، فبثوا علما كثيرا وسلوكا قويما، والتقوا أئمة عددا وملوكا، فكانوا كلما مروا بقرية من المناطق المذكورة استفتوا فأفتوا، واستفهموا فأفهموا، وربما مُدحوا أو امتدحوا، فأعقبوا بذلك في نفوس أبناء تلك المناطق حضورا شنقيطيا عميقا، وأبقوا في أذهان أولئك المواطنين اعتناء بثقافة القوم غير قليل، لذلك نلحظ علوق بعض المعارف الشنقيطية بذاكرة أبناء تلك القرى المزورة، وحضورها في كثير من محافلهم العلمية وندواتهم. فماذا عن التأثير الشنقيطي الذي تم بفعل المحابر والطروس، وتعمق مع نشر المعارف وإلقاء الدروس؟ بل تكرس جراء تهذيب الأفئدة وتطهير النفوس؟ وكيف كان تأثيرهم في مناطق البعد والتماس؟ وهل جاؤوا من الأمر جديدا فأفادوا واستفادوا؟ أم أنهم اكتفوا بملاقاة الأحبة والنظراء دون أي تأثر ولا تأثير؟ ذلك ما نسعى إلى استجلاء بعض جوانبه من خلال المحاور الآتية؟

أولا: المنطلقات الأولية.

في هذا الجانب نكتفي بالوقوف يسيرا مع هذا العنوان منبهين إلى أنه يتألف من عدة كلمات مفاتح هي «الشناقطة» و«الإسهام بحماس» و«تثقيف مناطق البعد والتماس» وقد ربطت بينها أداة الجر «في» التي جاءت للحمة والإلصاق.

أما الشناقطة فجمع شنقيطي نسبة إلى شنقيط، وهي مدينة في الشمال الموريتاني، وكانت تطلق في القديم على المجال الجغرافي المعروف اليوم بـ«موريتانيا». وهي تسمية أطلقها أبناء البلاد العربية على سكان هذه الأرض فقبلوها عن طيب خاطر ورحابة صدر، وصاروا لا يعرفون خارج بلدهم إلا بها، ولعل الأصل في اعتمادها أن مدينة شنقيط كانت منارة العلم ومرتكز التجارة ومنطلق ركب الحجيج، إذ يؤمها مَن حولها من أهل القرى، فقد أصبحت منذ أواخر العاشر الهجري ذات شهرة كبيرة وسيرورة بين الناس، فهذه التسمية تحمل دفءا معرفيا وعمقا تاريخيا وبعدا حضاريا، لذلك اعتُمدت في عناوين عدد من الدراسات والبحوث المتعلقة بمعارف البلد وتاريخه الثقافي[1].

أما «الإسهام» فمصدر أسهم في الشيء إذا اشترك فيه. والحماس الشدة والشجاعة، والإقبال على الشيء بأريحية واحتفاء.

والمقصود من الإسهام بحماس في هذا المقام التنبيه إلى أن القوم بذلوا جهودا مشكورة في بث المعارف والعلوم وضحوا في سبيل ذلك كثيرا.

وأما «مناطق البعد والتماس» فهي واضحة المدلول ونعني بها في هذا المستوى الإشارة إلى أن تأثيرات الشناقطة في الجانب المعرفي شملت المناطق المتاخمة لبلادهم وتلك البعيدة منها كذلك.

ثانيا: التأثيرات الشنقيطية في مناطق المجاورة والاقتراب.

ويمكن أن نقسم هذه التأثيرات إلى قسمين أولهما يرتبط بالساحة العربية وثانيهما يتعلق بالمناطق الإفريقية.

أ- التأثير الشنقيطي في الساحة العربية:

وسنقصر اهتمامنا في هذا الجانب على تأثير الشناقطة في المناطق العربية المحاذية لأرضهم والقريبة منها فقد كان لهم تأثير يذكر في بلاد المغرب الأقصى وفي الجزائر، وفي تونس وليبيا، وسنرصد هذا التأثير من خلال التلبث مع جهود خمسة من علماء القوم نعرض لهم تباعا في ما يأتي:

1-سيدي عبد الله بن رازكه (ت1144هـ) :

ويمكن القول إن تأثيره اقتصر على منطقة المغرب الأقصى، فقد كان على صلة وثيقة بالبلاط المغربي فترسخت العشرة المعرفية بينه وبين محمد العالم بن السلطان مولاي اسماعيل، فقد نظم أبياتا أكد خلالها أن مكناسة الزيتون ازدهت فرحا بمجيء الوفد الشنقيطي، المكون من القاضي بن رازكة والأمير أعل

1. نذكر من ذلك على سبيل المثال الوسيط في تراجم أدباء شنقيط: لأحمد بن الأمين؛ بلاد شنقيط المنارة والرباط: الخليل النحوي؛ والشعر الفصيح في بلاد شنقيط: عبد الله بن ابتحميده؛ أدب الرحلة في بلاد شنقيط: د. محمدن بن أحمد بن المحبوبي.

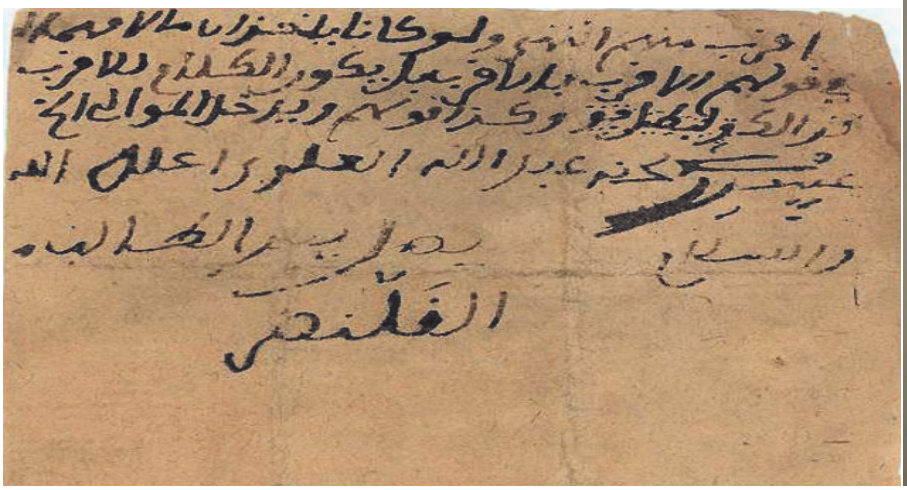

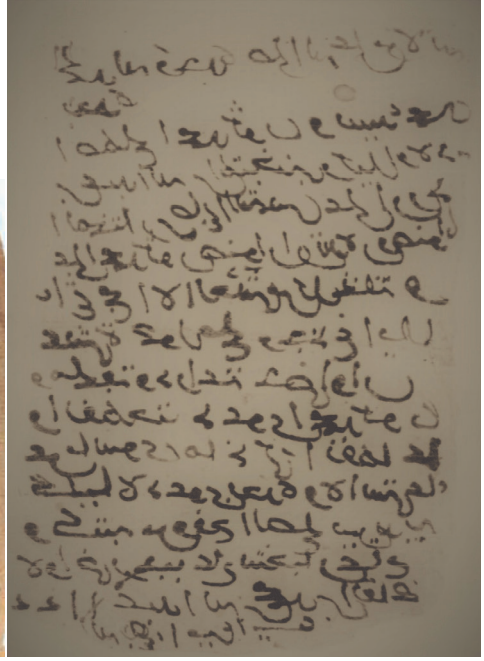

شنظورة. يقول[2]:

مكناسة الزيتون فخرا أصبحت
تزهو وترفل في ملاء أخضر

فرحا بعبد الله نجل محمد
قاضي القضاة ومن ذؤابة مغفر

كما نقرأ لهذا الأمير نموذجا شعريا آخر يبرز ضمنه إعجابه بشعر بن رازكة، مصرحا أن منتوجه بلغ من البيان منزلة عالية جعلته يتجاوز الأساليب الشعرية المألوفة ليتعالى فوق سحر أولي البلاغة والبيان، يقول[3]:

أتانا من قرى شنقيط شعر
تعالى فوق سحر الساحرينا
يقصر شعرنا عنه لو أنا
بعثنا في المدائن حاشرينا

2- سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت1233هـ):

من المعلوم أن هذا الإمام أقام بالمغرب فترة غير يسيرة اتصل خلالها بالنخب العلمية والسلطات الرسمية، وخلف بذلك حضورا غير يسير في ذاكرة الحواضر هنالك، ولعل من أبرز بصماته هنالك حضوره المتميز في ذاكرة علماء مدينة فاس، فقد امتدح سعيه منهم رجلان أحدهما أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج[4]، الذي قرظ منظومته مراقي السعود بقوله[5] :

هذي أصول علوية علت
أصلا وفي سوق ذوي العلم غلت

من درر من الجوامع جلت
ومن سوى ما يعتنى به خلت
بل لم تكن إلا فرائد اجتلت
في نحر طالب وفي نفس حلت
عروب أبكار بها تدللت
قطوف أفكار بها تذللت
محاسن الصدور فيها حصلت
كتاب الكتب فيه أجملت
قد أحكمت آياته وفصلت

والآخر هو عبد الرحمن بن جعفر الكتاني[6]، وقد جمع في تقريظه بين النثر والنظم منزلا هذه المنظومة منزلة عالية،[7]:

3- محمد يحيى بن محمد المختار الولاتي (ت 1330هـ) :

تجدر الإشارة هنا إلى أن تأثير الرجل شمل الساحتين العربية والإفريقية، فقد مثلت رحلته قناة اتصال وجسر عبور بين بلاد شنقيط ومنطقة المغرب الأقصى، وتجلى ذلك من خلال الحلق الدراسية. فمكانة الرجل العلمية المتميزة أهلته لأن يمثل قومه في الحواضر الإسلامية أحسن تمثيل، فنشر بجهوده علوم بلده، ورفع له ذكره في المحافل العلمية، فكان بحق عنوانا للعالم الشنقيطي المتميز الذي عرف بقوة الذاكرة، ففي قرية «مجاط» مثلا نراه يقيم أكثر من نصف شهر بساحة مضيفه الفاضل سيد اعل، وأثناء هذه الإقامة تسابق إليه طلبة العلم من أبناء هذه القرية يقتبسون من معارفه ويصححون على مسامعه بعض الأغلاط والأخطاء، خاصة في علوم البلاغة وفي علم المعاني على وجه أخص.

وفي مدينة «اكليميم» نراه يقدم دروسا في الفقه ويجيب عن بعض الفتاوى التي قدمت إليه، فقد سأله مسؤول هذه القرية عن الحكم الشرعي في صلاة الجمعة بمسجدي «اكليميم» القديم والحديث، وأيهما أصح جمعة، فأجاب عن ذلك إجابة محررة مفيدة يقول ضمنها: «اعلم أيها الناظر المنصف أن قد اتفق المالكية على أن الجمعة لا يقيمها

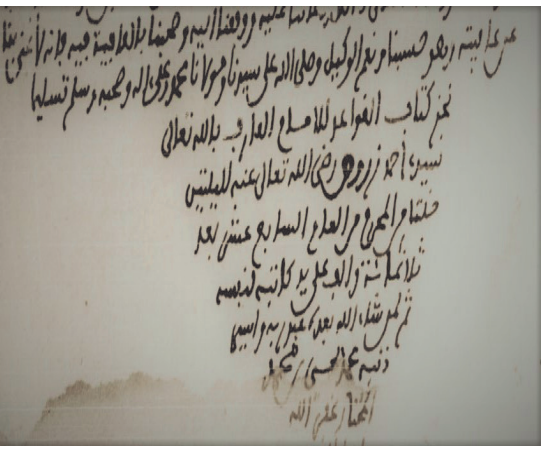

2. أدب الرحلة في بلاد شنقيط : د محمدن بن أحمد بن المحبوبي مطبعة المنار نواكشوط ، 2012
3. المرجع السابق والصفحة
4. هو أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون السلمي، المرداسي (1174هـ 1232-هـ) ويعرف بابن الحاج، أديب فقيه مالكي من أهل فاس عرفه السلاوي بالأديب البليغ صاحب التآليف الحسنة والخطب النافعة له كتب منها: حاشية على تفسير أبي السعود، وتفسير سورة الفرقان، ومنظومة في السيرة على بحر البردة في أربعة آلاف بيت، وشرحها في خمسة مجلدات، وله أيضا المقامات الحمدونية، والتميز والمختصر من روض المختصر، وحاشية على مختصر السكاكي في البلاغة، ونفحة المسك الداري لقارئ صحيح البخاري، بالإضافة إلى ديوان شعري، ولابنه محمد الطالب كتاب في ترجمته، سماه رياض الورد، (الأعلام 275/2).
5. نشر البنود وبهامشه الضياء اللامع بشرح جمع الجوامع لحلولو، مطبعة حجرية 1327هـ ص 343.
6. هو عبد الرحمن بن جعفر بن إدريس الكتاني (1277هـ - 1334هـ) أديب له نظم جيد من أهل فاس قرأ على والده وعلى أخيه محمد بن جعفر. سافر إلى مراكش وغيرها، فسقط عن دابته وأصيب بصدره فعاد إلى فاس فتوفي بها، وقد جمع لوالده فهرسه المسمى إعلام أئمة الأعلام وأساتذها بما لنا من المرويات وأسانيدها، وله رسائل ومنظومات طبع بعضها أنظر الأعلام 303/3.
7. نشر البنود وبهامشه الضياء اللامع بشرح جمع الجوامع، لحلولو، مرجع سابق ص 364..

في البلد إلا سلطان أو مأموره أو من له الحل والعقد في القرية، فالجمعة لا تقام إلا بثلاثة شروط، المصر والجماعة والإمام الذي تخاف مخالفته (...) ففي هذا النقل التصريح بأن جمعة سيد اعل في الجامع القديم باطلة إذ ليس فيهم نائب السلطان ولا من له الحل والعقد، فجمعتهم باطلة اتفاقا[8]» .

وفي مدينة مراكش يقيم حلقا تدريسية استهدفت بعض أعيان الأسرة المالكة يومئذ، فقد درس عليه بعض أفراد البيت العلوي جملا من كتب السيرة والحديث، كما درّس أيضا بالزوايا التجانية في هذه المدينة يقول: «واجتمعنا أيضا بسيدنا ومولانا عبد العزيز بن سيدنا ومولانا محمد، بن سيدنا ومولانا عبد الرحمن عم السلطان، وقرأ علينا كتاب الشمائل للترمذي وبعض كتاب الشفاء للقاضي عياض رحمه الله تعالى، وقرأهما معه علينا الفقيه الفاضل أحمد محمود بن سيد صالح، وجماعة من أفاضل أصحاب شيخنا وسيدنا أحمد بن محمد التجاني رضي الله عنه[9]» .

وأكثر من ذلك فإن الفقيه الولاتي نال تقدير المغاربة فنوهوا بمكانته العلمية ويتجلى ذلك في النص الشعري الذي أبدعه العلامة الشاعر د. عبد الهادي احميتو مبينا خلاله ما اتصف به الفقيه من صفات الأستذة والسيادة والإمامة مؤكدا تمكنه من ناصية العلوم وطول نفسه في التأليف، إذ غطت مؤلفاته حقول علوم القرآن والفقه والحديث والنوازل واللغة والنحو والبلاغة وغيرها، يقول( ):

من وحي ذكرى العالم الولاتي

أهدي تحياتي لخير وعاة
طلاب هذا الشأن من وصلوا علا
ماضي البلاد بحاضر وبآت
واذكر ولاتة في معاقل عزها
وعميدها المتصدر الولاتي
أستاذ من حمل اليراع بأفقها
وإمامها الكشاف للغمرات
من ساد في سودانها وتخومها
بمتونه وفنونه النضرات

أما في البلاد التونسية فإنه أقام علاقة طيبة مع ابراهيم الرياحي، ولبث بزاويته فترة، التقى خلالها ثلاثين وجها من الوجوه الثقافية هنالك، وقد سطر أسماءهم في رحلته مصرحا أنه أفادهم واستفاد منهم؛ وفي البلاد التونسية أجاب الرجل أيضا عن جملة من الأسئلة دونها في كتاب بعنوان «حسام العدل والانصاف، في إبطال شهادة رؤية النار وسماع المدفع وضرب التلغراف»[10].

ولا ننسى أن تأثير الرجل في المنطقة الإفريقية كان كبيرا، فقد ظل على صلة وثيقة بإمارة فوتة. فقد فاوض أميرها أحمد بن الحاج عمر في ضرورة رفع الحصار الاقتصادي عن بني وطنه «أهل ولاته» وقد انتهت المفاوضة بالتصالح بين الطرفين، وترتيب الشيخ الولاتي إماما راتبا لمسجدهم، ومرشدا دينيا فلبث بساحة الأمير فترة ممتدحا سعيه، ناثرا الدر النفيس على رعيته، داعيا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وفي لحظة الوداع أتحف الأمير الولاتي بسلسلة ذهبية تزن مائة مثقال، وأمده ببعض البضائع والملابس[11].

4- ابن طوير الجنة الوادانـي (ت 1265هـ)

ومن الشناقطة الذين كان لهم حضور يذكر في منطقة المغرب العربي لمرابط المصطفى الطالب أحمد بن اطوير الجنة. الذي بلغ به الأمر إلى تأسيس زاوية باسمه في مدينة مراكش. وقد بدأت فكرة هذه الزاوية في التبلور عندما أبدى السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام تعلقه الشديد بهذا المرابط فقد رغب أن يقيم معه بالمغرب ويترك الأهل و الوطن، وقد توسل السلطان إلى هذا الأمر بكل وسيلة فأخذ يحاور تلميذ الشيخ محمد الصابر عله أن يشير إليه برأي سديد يربط الواداني بالمغرب ويشده إلى مراكش ويمنعه من مواصلة المسير، غير أن التلميذ أقنع السلطان باستحالة ذلك مؤكدا أن الشيخ تنازعه رغبة إلى الوطن شديدة ويحدوه حنين إلى الأهل عظيم، وفي أعقاب هذا الحوار تولدت فكرة تأسيس زاوية تهدف إلى شد الرباط الثقافي وتسعى إلى تثبيت أواصر الثقافة والعلم بين الرجلين، يقول: «فتعاملنا معه في زاوية تكون وصلة بيننا وبينه وبيننا وبين أولاده»( )، ولما تم الاتفاق على مشروع الزاوية بدأ التفكير في اختيار موقعها المناسب فوقع الإجماع على مراكش وبالذات جوار سبعة رجال( )، وحرم الولي سيدي

8. الرحلة الحجازية مرجع سابق ص 88.
9. الرحلة الحجازية مرجع سابق ص 352.
10. الفقيه الولاتي في ذاكرة الحواضر المغربية : د. محمدن بن أحمد بن المجبوبي مقال مرقون ص 20
11. المرجع السابق والصفحة

ميمون الصحراوي فاشترى السلطان لهذا الغرض دارا واسعة بمال طيب وهو جزية اليهود، ولما اكتملت مراسيم افتتاح الزاوية أولموا عليها بشياه عديدة فأطعموا الناس وسقوهم وجادت السماء بمائها واستبشر أهل المدينة بالزاوية متحدثين عن يمنها وبركتها، وما إن تم أمر الزاوية حتى أخذ الشيخ في الارتحال إلى أرضه قاصدا الصويرة، وقد خرج لتوديعه سيدي محمد بن السلطان مصحوبا بملئه وحاشيته ولم يرجعوا إلا بعد أن غابت مراكش عن نظرهم[12].

ولا ننسى أن نذكر بأن الوداني أقام بالصعيد التونسي فترة. فمر بمدينة سوسه وكذلك مدنية المنستير ثم توجه بعد ذلك إلى القيروان ملتمسا بركة الأولياء والصالحين، بساحتها، مذكرا بكثرة العلماء، في تاريخها القديم يقول: «ثم سرنا إلى القيروان وزرنا الأولياء والعلماء وما أكثرهم، وأول من زرنا منهم أبو زمعة الصحابي الجليل، ت 34هـ، وابن أبي زيد، والإمام سحنون، وولده محمد، والقابسي». وحاور العلماء هنالك وتبادل معهم الهدايا والتحايا. وفي مدينة طرابلس الغرب بالبلاد الليبية كان للرجل تأثير يذكر كذلك فحاور عددا من العلماء هنالك فأفادهم واستفاد منهم.

5-كمال الدين المجيدري (ت1204هـ):

لقد كان له تأثير علمي في بلاد المغرب الأقصى، فكان على صلة وثيقة بأحمد بن إدريس الفاسي، الذي تتلمذ عليه وأخذ عنه أصول الفقه، مما انعكس إيجابا على إقامة المجيدري بفاس حيث حظي بمكانة كريمة وتبوأ منزلة عالية بفضل هذا التلميذ الذي يعتبر أبرز الآخذين عن هذا الرجل، فقد استودعه المجيدري منهاجه الأصولي ومشروعه الإصلاحي.

ومن تأثيرات المجيدري الثقافية في بلاد المغرب الاقصى التقاؤه بالأديب حمدون بن الحاج الفاسي، الذي يبدو أنه أعجب به كثيرا فبعث إليه التحف والهدايا، لكن المجيدي أعرض عنها فأثار ذلك شاعرية ابن الحاج فنظم أبياتا يعتب ضمنها على الرجل عتابا لطيفا، يقول[13]:

بكت حمامات أيكات بأنات
وأذكرتني الحمى وساكنيه ذوي
تعففوا عن جميع ما يشين وما
إذ كان فيه تواصل ومرحمة
إن كان في رده درء لمفسدة
مغردات بأصوات ورنات
زهد ونسك وعرفان وعفات
تعففوا عن قبول للهديات
تهدى العقول إلى أوفى المودات
ففيه ترك مصالح كثيرات

فأجابه المجيدري ملتمسا منه الصفح والمغفرة، معتذرا عن زلته وإساءته مبينا حجته في رد الهدية، مشيرا ضمن أبياته إلى كلام سابق قد دار بينه وبين نظيره الفاسي خاتما أبياته بالقاعدة الأصولية التي تقدم دفع المفسدة على جلب المصلحة، يقول[14]:

اصفح فديتك واغفر لي إساءاتي
فإنني جاهل كثير زلات
ولم تكن نيتي والله يعلم ما
أخفيت غيظي حمدونا بخلاتي
بل خوف ذم اللواتي كنت قلت لكم
وما مفاسدها عنكم خفيات
ودرء مفسدة مما يقدمه
عن جر مصلحة أهل السيادات

ب- الحضور الشنقيطي في الغرب الإفريقي:

تجدر الإشارة هنا إلى أن المحاظر الشنقيطية استمالت الأفارقة واستهوتهم بمقرراتها، فأقاموا بساحتها متلبثين وإلى حلقات دروسها متسابقين، فغدت المحظرة الشنقيطية منبر معرفة وتعليم ومركز جذب واستقطاب، وبذلك كانت عادةُ إرسال أبناء فوتا إلى شنقيط بقصد التعلم والدراسة سنة متبعة وتقليدا راسخا، يدخل في إطار التبادل المعرفي وعملية المثاقفة التي تمت بين ضفتي النهر. فمنذ القديم كان الشناقطة يستقبلون بين أظهرهم أبناء الأفارقة فترسخت عادة إرسال البكر من الأبناء إلى مدارس البيضان ليستكمل ثقافته الدينية لديهم[15].

وقد أشار الرحالة الفرنسي رنيه كايي إلى استمرار هذا التقليد حتى مستهل القرن التاسع عشر الميلادي، ويفهم من ملاحظة هذا الرحالة أن الرحلة العلمية من بلاد السودان إلى بلاد شنقيط قد ازدهرت واتسعت ولم تقتصر على الأطفال. وأكثر من ذلك فإن الإمام عبد القادر كان زعيم دولة الائمة في فوتا، قد تلقى دروسه على الشيخة المرابطة خديجة بنت محمد العاقل، لينتظم في ورد الطريقة الشاذلية عبر سلسلة العالم عبد الجليل بن الحاج الشنقيطي، ثم إن الشيخ أحمدو بمب ارتحل إلى أرض شنقيط ليقتبس من أنوار الشيخ سيديا باب، ويستأنس بجواره، متلبثا بساحته، كما أن العالم الحاج مالك سي مكث فترة بمحظرة العالم محمد عالي بن محنض آخذا عنه المعارف والعلوم ثم عمق معرفته من بعد بمحاظر العلويين، متخرجا على أشياخهم مستقرا بساحتهم في بلدة تنبيعلي[16].

يضاف إلى ذلك أن المجاهد عمر الفوتي ارتحل أيام شبابه إلى بلاد شنقيط حسب ما ذكره بعض الدارسين، ومما يشهد لذلك كثرة عزوه واستئناسه بمؤلفات القوم، حيث كانت المصنفات الشنقيطية بالغة الحضور بالمكتبة العمرية[17]

ثم إن المترجم السينغالي دود محمد سك المعروف بابن المقداد قد تخرج من المحاظر الشنقيطية. واحتك بالمجتمع البيظاني ليفتح منزله في مدينة اندر أمام الوافدين من القوم مكرما مثواهم، وبالمقابل أوفدته السلطات الفرنسية إلى البلاد في مهمات استطلاعية، وقد كان منزله منتدى للفكر والحوار، ومتلقى لأهل المعرفة والآداب، وذلك ما عبر عنه محمد بن آبو الحسني في شعر

12. أدب الرحلة في بلاد شنقيط الدكتور محمدن بن أحمد المجوبي جامعة محمد الخامس 1995 ص 53.
13. المرجع السابق، ص: 12
14. المقصود بسبعة رجال قوم صالحون مدفونون بمراكش وقد عرفوا بالبركة والفضل، وهم سيدي يوسف بن علي والقاضي عياض وأبو العباس السبتي، وسيدي محمد بن سليمان الجزولي، وسيدي عبد العزيز الدباغ ومولاي عبد الله الغزواني، والإمام السهيلي، وهو الذي تختم به الزيارة.
15. زينب بنت الطالب أحمد، مرجع سابق، ص: 151
16. محمد الامجد بن محمد الامين السالم: كمال الدين محمد المجيدري حياته وآثاره جامعة نواكشوط 1989 ص 16.
17. المرجع السابق والصفحة.

سلسل رقيق يميل إلى الطرافة والجناس يقول[18]:

بإذن الله عن كثب سنلوي
صدور اليعملات إلى سنلوي
لدار لا سلو يروق عنها
وتسلي كل ذي حضر وبدوي
بها ما اختير من أدب ودين
وعلم صين من غلط وسهو

ونكتفي في هذا المقام بالوقوف مع تأثير خمسة من علماء القوم نعرض لهم تابعا في ما يأتي:

1- الإمام ناصر الدين (ت 1085هـ):

وتجدر الإشارة إلى أن جهود الشناقطة بمناطق الجوار أعقبت في نفوس الأفارقة إسلاما عميقا، فدفعت عقارب ساعات الإيمان إلى الأمام، فانطلقت حركة ناصر الدين في أواسط القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، وشمل تأثيرها حوض السينغال والسودان الغربي المسلم كله، فكان هذا الإمام يوفد الوفود إلى أمراء الضفة الجنوبية يعظهم ويذكرهم بأحكام الله وهم عن التذكرة معرضون، فلما يئس من استجابتهم اتجه إلى الرعية والشعوب فلقيت دعوته إقبالا عظيما وانطلق المستضعفون في ثورة عارمة أطاحت بعروش الملوك والأمراء.

ومن أبرز خصائص هذه الحركة أنها حركت الإسلام المجاهد لأول مرة في منطقة شنقيط منذ عهد المرابطين وذلك بعد قرون من الفراغ السياسي في الصحراء الصنهاجية ولذلك رأى محمد اليدالي «أن أكبر آيات ناصر الدين رضي الله عنه، وكراماته إقبال الناس إليه من كل وجه بدويهم وحضريهم، وعربيهم وأعجميهم، مع أن ذلك البلد لم يكن فيه سلطان ولا وال قط»[19].

وهذا الإسلام الفاعل سياسيا وعسكريا هو الذي أثار دهشة الفرنسيين، فلم يكونوا يتصورون رجل الدين إلا درويشا زاهدا ولهذا افتتح «شامبونو» حديثه عن حركة ناصر الدين حركة التوبة وقد سماها هو التوبنا، بالتأكيد على أنها أمر لم يسبق له مثيل، يقول: «ما رأى الناس قط مرابطا أو راهبا يغادر وطنه ويذهب إلى بلد بعيد ليدفع أهله إلى الثورة ويجعلهم يقتلون أو يطردون ملوكهم بحجة الدين والوحي الإلهي، ليستولي عليهم ويحكمهم»[20].

ومن أهم نتائج هذه الحركة الانتقال من إسلام الملوك إلى إسلام الشعوب، وذلك أن السلالات المالكة كانت تعلن إسلامها بانتظام من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بينما كان إسلام الرعايا على سطحيته مشوبا أحيانا كثيرة بأضغاث من وثنية[21].

2- العم بن أحمدو فال العلوي (ت 1315هـ):

ومع هذا الرجل يتواصل التأثير المعرفي لأبناء شنقيط، إذ تجول في الأقطار الإفريقية ناشرا العلم مبلغا رسالات الإصلاح، وقد توطدت صلته بالأمير أحمد بن الحاج عمر الفوتي فلازمه وأقام معه في مقر سلطانه «سيكو» وقد امتدحه بمطولة نوه ضمنها بيمنه وبركته مشيرا إلى دوره البارز في نشر الإسلام وإيصال نوره إلى مختلف المناطق الإفريقية يقول[22]:

أنخنا أمير المؤمنين ببابكم
رجاء لربح المال تأتي بلادكم
بكم نشر الإسلام وامتد نوره
فما خاب ناحيكم لإصلاح دينه
لنصطاد ما نُلقى به من قراكم
رجال وتأتيها رجاء لقاكم
صريحا وبالمأثور كان التحاكم
ولا من لإصلاح الدنا قد نحاكم

3-الشيخ سعد أبيه (ت 1335هـ):

نذكر بأن هذا الشيخ له تأثير صوفي بالغ الأهمية، فقد كان له جهود مشكورة في بث الطريقة القادرية، ونشر الإسلام بمختلف المناطق الإفريقية خاصة السينغال وغامبيا وغينيا، فعمم أوراد هذا التوجه الصوفي ونشر أسراره بين أبناء ذلك الصعيد، فكثر مريدوه، وانتشر صيته، وقد أشار المختار بن المحبوبي إلى جانب من تأثيره الصوفي عبر منظومته لوفيات أعيان عصره يقول[23]:

ومات في «هل» من الأعيان
سعد أبيه غرة الزمان
من عم الأرض مشرقا ومغربا
علما وحلما وتقى وأدبا
ونشر الأوراد والسودان

18. ددو ولد عبد الله حوليات جامعة نواكشوط العدد الأول 1989م ص 18 مقال بعنوان : دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية في الغرب الإسلامي حتى نهاية القرن 18 ميلادي
19. بلاد شنقيط المنارة والرباط الخليل النحوي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص 239.
20. الحاج عمر الفوتي وبلاد شنقيط ملاحظات في العلاقات السياسية والثقافية : أحمدو ولد الحسن مقال مرقون ص 8
21. أدب الرحلة في بلاد شنقيط مرجع سابق ص 357
22. أمر الولي ناصر الدين: محمد اليدالي تحقيق محمدن بن باباه لكتاب الشيخ محمد اليدالي «نصوص من التاريخ الموريتاني» ص 125.
23. أحمدو ولد الحسن حوليات جامعة نواكشوط مرجع سابق ص 14

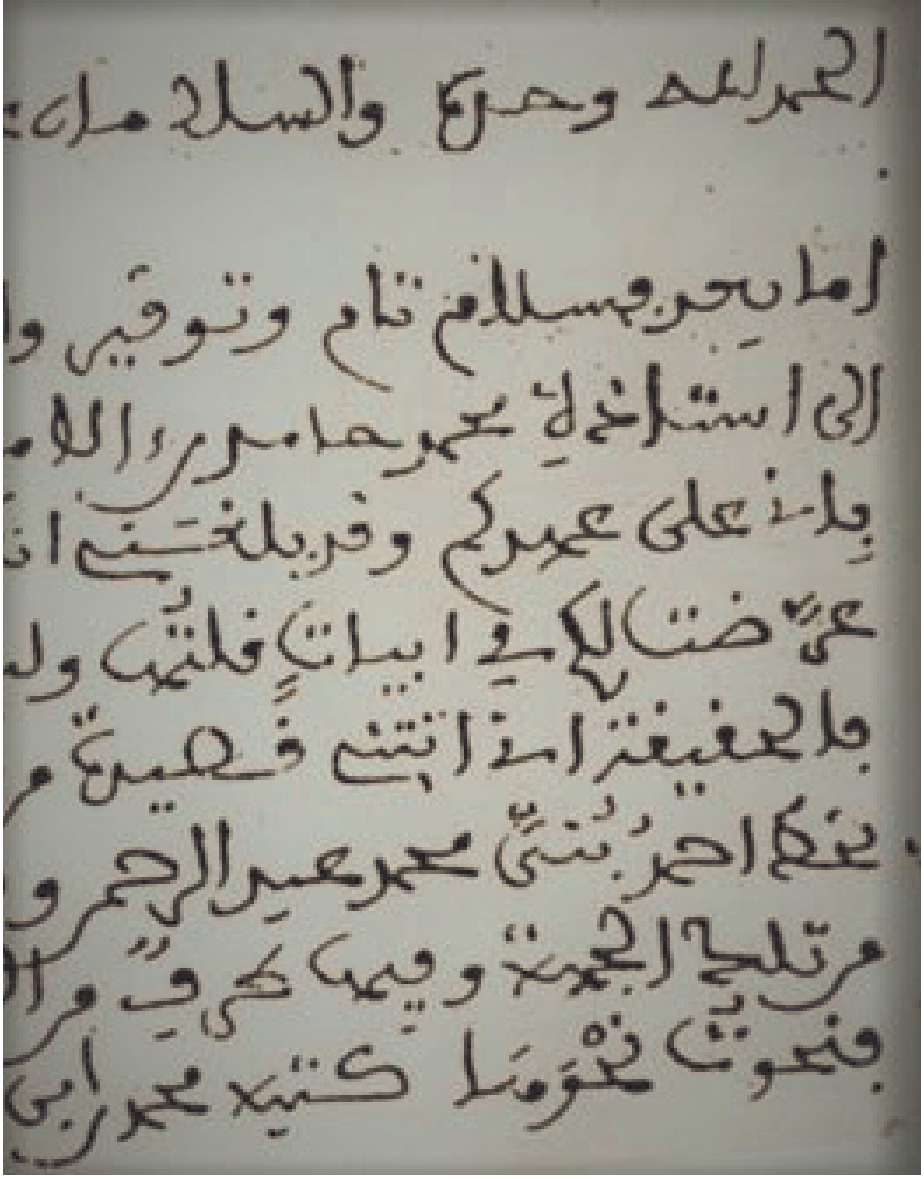

ذلوا له وخضعوا ودانوا

وقد أشار العالم سيد أحمد بن اسمه إلى قوة تأثير حضرة الشيخ سعد أبيه في نفوس الأفارقة ودورها الكبير في نشر الإسلام وتعميمه، في مختلف المناطق والحواضر يقول: «... شاهدنا بنبار وصوصات وغيرهم من سائر الأجناس يأتون من بلادهم البعيدة ماشين على أرجلهم إلى أهل الشيخ سعد أبيه من غير أن يدعوهم إلى ذلك إلا سابق السعادة وقد كانوا قبل إتيانهم كفارا جهالا أعجاما، فبدلهم الله تعالى الإسلام مكان الكفر، والعلم مكان الجهل، والتعرب مكان عجمتهم، ثم يكونون أئمة دعاة إلى الخير فيهتدي على أيديهم آخرون وذلك ببركة أولئك الأشياخ[24]. ويقدم ابن اسمه في كتابه «النصح الأتم» بحثا وافيا سلط خلاله الضوء على تأثير أشياخ التصوف ونشاطهم العلمي مؤكدا أنهم قد عملوا جهدهم على نشر الإسلام وهداية الشعوب وإرشادها إلى الخير؛ وقد نوه كثيرا بجهود أسر آل الشيخ سعد أبيه يقول: « وكم اعتنق الإسلام على يد الشيخ المحفوظ – وهو من أبناء الشيخ سعد أبيه من جولات، وغيرهم، أما أهل آب محمد فهم العجب العجاب فقد اهتدى على أيديهم من بمبارة وسورغلي وأجناس الأعاجم وأسماءها ما لا يعلم عدده إلا الله. وقد مررت بهم في بعض السنين فأخبروني أنه تاب (أسلم) على أيديهم في ذلك العام عشرون ألف نفس، وللمختار بن عبد الجليل التندغي من ذلك نصيب.

3- محمد بن أبنو الشقروي (ت 1362هـ):

ومن الذين كان لهم حضور يذكر بالبلاد السينغالية محمد بن أبنو الشقروي الذي ظل يحن إلى وطنه رغم تعلقه بمدينة دكار وذلك ما عبر عنه في نص غزلي بديع يقول فيه[25]:

هاج ادكاري شادن بدكار
في وجهه قمر وفي ضفراته
كم ليلة بالدار قد غازلته
يختال بالآصال والإبكار
ليل العميد الدائم التذكار
ورقيبه بالدار ليس بدار

وأكثر من ذلك فإن الرجل امتدح أهل طوبى مثنيا على أبناء الشيخ أحمد بمب مصرحا بفضل هذه المدينة التي يأمن الداخل إليها وينجو من خطوب الدهر يقول[26] :

أمنت من الخطوب أتيت طوبى
فطوبى للذي دفنوه فيها
فلا غدرا أخاف ولا أذاة
بها الشيخ الخديم ثوى فنالت
ويأمن من ألم بها الخطوبا
وللشيخ الخليفة فيه طوبى
من الدهر الخؤون ولا قطوبا
بيمن الشيخ منزلة وطيبا

4- - الحاج محمود باه (ت 1398هـ)

من المعلوم أن هذا الشيخ اضطلع بدور بالغ الأهمية في نشر العلوم العربية والإسلامية، فمثل بذلك مظهرا مهما من مظاهر الدبلوماسية الثقافية لبلاده، فبعد إقامته في بلاد الحرمين تفتقت عبقريته وازدادت معارفه إذ أقام فترة بحلقة الشيخ علوي بن عباس المالكي الذي احتضنه وأدخله المدرسة الصّولتية و مدرسة الفلاح وأسكنه بجوار الحرم، وفي 1941 وبعد عشر سنوات قضاها الشيخ محمود باه دارسا ومدرسا في الحجاز حصل خلالها على إجازة تدريس الفقه والحديث، رجع إلى بلاده سنة 1926 يحمل مشروعا إصلاحيا، فأقام بقريته «جوَل» بالجنوب الشرقي من موريتانيا، ومنها مهّد لتأسيس مجموعة مدارس الفلاح بمدرسة الفارابية، وفي سنة 1944 أنشأ أول مدرسة للفلاح في غرب إفريقيا بمدينة داكار عاصمة السينغال.

وفي عام 1947م توجه إلى مدينة

24. حوليات جامعة نواكشوط مرجع سابق ص 14.
25. الشريف بن أحمد محمود تحقيق طرة العم ولد أحمد فال جامعة وجدة 1992ص 39
26. مخطوط بحوزتنا.

«خاي» المالية، وافتتح بها فرعا كبيرا من المجموعة المدرسية، استفاد منه طلاب مالي والمنحدرين من المناطق والبلدان المجاورة لها (السنغال وموريتانيا وغينيا).

وقد شهدت حركة افتتاح المدارس التابعة لمجموعة الفلاح - بعد ذلك - توسعا كبيرا، حيث افتتحت مدارس ومساجد في عموم غرب أفريقيا (من الكاميرون وحتى موريتانيا) وبلغ عددها قبل وفاة الشيخ محمود باه 99 مدرسة و 77 مسجدا.

وساهم الشيخ من خلال هذه المدارس في خدمة اللغة العربية والعلوم الإسلامية؛ فأنار الدروب بجهوده وجهاده وببذله واجتهاده فكان للعلم منارة ولحالك الدجنة إنارة.

5- المختار بن حامدن (ت1414هـ)

وقد كان هذا الرجل على صلة وثيقة بالسينغاليين، فقد أقام بدكار بمدينة سينلويس وفي هذه الاخيرة توطدت علاقته بالأديب اللبناني يوسف مقلد الذي حدثنا عن أول لقاء جمعه بالمختار، محددا تاريخه بدقة ومنبها إلى الظروف التي أحاطت به، يقول: «كنت في سان لويس سنة 1942م وذات يوم كنت أجتاز شارعا فحانت مني التفاتة إلى حانوت بيضاني فأتيته مسلما، فإذا بجماعة من الإخوان الموريتانيين في حفل شاي يأكلون القديد، ويشربون الشاي، ويتناشدون الأشعار، فجلست أستمع إليهم وفي تلك الجلسة التقيت أول مرة بالمختار ولد حامدن عالم البيضان وأديبهم المعروف[27]» ثم يذكر هذا اللبناني أن المختار لبث بهذه المدينة فترة وهو يزاوج بين بيع البضائع ونظم القصائد دون أن يكلفه هذا الأخير عناء كبيرا يقول: «وفاجأته مرة بسان لويس وهو مكب على ورقة وراء كنتوار فقلت السلام عليكم يا مختار ما تصنع؟ فقال: أنظم قصيدة فقلت: كان ينبغي أن تكتب نثرا، فقال: ولكن نظم الشعر أسرع عندي من كتابة النثر[28]».

وأثناء إقامة الرجل بالغربة سطر بعض المقامات ونظم بعض الأشعار أما المقامات فمنها المقامة الأندرية نسبة إلى مدينة «اندر» السينغالية ويقول في مقدمة هذه المقامة: «خرجت إلى قنطرة تين جكين، أعتبر بمن يمر عليها من «كور وجكين»، فوقفت بجانبها الغربي، أرصد مرور العجمي والعربي، فمر الولف والتكارير، والفلان والبنابير، ومرت عضين، زمر البياضين[29]» .

وأما الأشعار فمن أبرزها القصيدة الدكارية التي أمتدح بها أهل هذه المدينة، واستفتحها بوصف السحاب والبرق مسترجعا ذكرياته مع أهل دكار، يقول[30]:

برق تألق فاستطار أطارا
نومي فهيج لي ادكار دكارا
فقعدت أرقبه وقد طار السنا
منه فكاد يخطف الأبصارا
ما أنس لا أنسى دكارا وأوجها
فيه كمضروب النضار نضارى
مصر أقمنا عام أول أشهرا
فيه كتقصار اللجين قصارا
هم مكرمو مثوى الغريب إذا ثوى
والمحسنو إنزاله إن زارا
والمانعوه بحورهم وبُحورهم
أن يذكر الأوطان والأوطارا
غلبوا الخيار مجادة وسيادة
حتى لقد تركوا الخيار حيارى

ثالثا: التأثيرات الشنقيطية في مناطق المباعدة والاغتراب:

ويمكن تقسيم هذا المحور إلى مستويين أحدهما يرتبط بالمشرق العربي، والآخر يتعلق بالعمق الإفريقي:

أ- الحضور الشنقيطي في المشرق العربي

وسنعرض خلاله لجهود خمسة من علماء القوم كان لهم تأثير يذكر في تلك المناطق نعرض لهم تباعا في ما يأتي:

1- محمد محمود بن اتلاميد التركزي (ت 1322هـ)

لقد مثل الشيخ ابن اتلاميد الثقافة الشنقيطية في المشرق أحسن تمثيل، فكان لها هنالك أفضل سفير، فهو بجهوده المتميزة قد نقل المعارف المحظرية بما فيها من سعة المحفوظ وقوة الذاكرة إلى المشرق فأسعف أبناءه بمتنوع نماذجها في لحظة هم أحوج ما يكونون إليها، فاستنجد بمخزونه أهل نجد ونال من معروفه أهل النيل، وأبان لخصومه هنالك أن ثقافة قومه قادرة على أن تنافس نظيراتها وتحمل مشعل النضج والتميز في فترات التراجع والانتكاس.

وقد أوضح ذلك في مقطع من نونية بديعة نظمها حنينا إلى أرض الحرم وتعريضا بخصومه هنالك مصرحا أنه رباهم وجلس لتعليمهم ربع قرن من الزمان ينثر عليهم درر العلوم ويسقيهم من سائغات المعارف والفنون يقول[31]:

وقد ربيتهم عشرا وعشرا
وخمسا كاملات من سنين
بإطعاميهم والعلم غث
سدائف من ذرى علمي السمين
وسقييهم والعلم خل
سلافة خمر علمي ذا المعين
أعلمهم وأعرض عن أمور
مريبات أسأن بهم ظنوني

وأكثر من ذلك نذكر بأنه أسهم بفاعلية في مراجعة نصوص التراث وتصحيحها، واتخذ هذا النهج الإصلاحي لديه عدة صيغ من أبزرها ما كتبه على هوامش نسخته من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، فقد صحح الأوهام الواردة في النسخة التي وصلت يده من هذا الكتاب، وظهرت تلك التصحيحات في الطبعة البولاقية، كما تتجلى تحقيقات التركزي وتدقيقاته بشكل واضح في كتاب «أسرار البلاغة» لعبد القاهر الجرجاني، وكان الكتاب قد طبع أول مرة برعاية الشيخ رشيد رضا، وأدرج فيه تصحيحات محمد عبده عند قراءته للكتاب، مع الاستعانة بجهد بن اتلاميد الشنقيطي، وذلك ما عبر عنه محمود شاكر قائلا: «وقد أوقع في قلبي الريبة من هذه التصحيحات ما أعلمه من تسرع

27. سيدي أحمد بن امبه : النصح الأتم، والصلح والسلم مخطوط بحوزة الأستاذ محمد بن زين بن الحبوبي نواكشوط.
28. أحمد بن حبيب الله، تحقيق ديوان محمد بن آمن، القاهرة 1988م ص: 425.
29. المرجع السابق والصفحة.
30. المرجع السابق والصفحة.
31. المرجع السابق والصفحة.

الشيخ عبده وطغيانه في التصحيح بغير دليل، اعتمادا على ذكائه وحبه الظهور على أقرانه، ولكن سكن من ريبتي استعانة رشيد رضا بالشيخ الشنقيطي لما أعرفه عنه من التثبت وحسن بصره بلغة القوم في عصورهم المختلفة[32].

وقد شارك الشيخ في تصحيح الأخطاء وتفصيح الأساليب فنقل إلينا أول درس قدمه في المدينة المنورة، لتلميذه عبد الجليل براده، قبل أن تقع بينهما تلك الجفوة المعروفة يقول: «وأول ما استفاده مني يوم دخولي المدينة المنورة يوم الاثنين العاشر من محرم 1284هـ أن علمته كيف ينطق بالتجربة والتجارب، إذ كان يضم راءيهما،(...) فقرأ علي قول الشاعر:

وجربت ما جربت منه فسرني
ولا يكشف الفتيان غير التجارب

فحرف حركة الراء من الكسر إلى الضم فرددته إلى الصواب (...) وقلت له إنما هي التجربة بكسر الراء، وجمعها التجارب، بكسر الراء بإجماع أهل اللغة، وأنشدته بيت النابغة الذبياني:

تووزثن من أزمان يوم حليمة
إلى اليوم قد جربن كل التجارب

فهذا البيت وأمثاله لم يروه جميع الرواة إلا بكسر الراء[33].

وبعد أن صحح الشنقيطي هذا الخطأ اللغوي قدم لتلميذه درسا تربويا يدعوه من خلاله إلى أن يتعلم ولا يكتفي بما ورث عن أوساطه العلمية، فنصح له بقوله: «»... إن الأرض المقدسة لا تقدس أحدا ولا تعلمه العلم والفضل، وإنما العلم بالتعلم، وعلو الهمم والسعي له سعيه، والمعلم حقيقة هو الله جل جلاله»[34].

والجدير بالذكر أن أهل المشرق العربي دانوا لابن اتلاميد بالتلمذة، وأقبلوا على دروسه مسطرين شهاداتهم التي تكشف عن فذاذة هذا الشيخ وتمكنه من ناصية اللغة، فهو حسب الزيات: «آية من آيات الله في حفظ اللغة والحديث والشعر والأخبار والأمثال والأنساب لا يند عن ذهنه من كل أولئك نص ولا سند ولا رواية، يتحدى رجال اللغة مستعينا على جهلهم بعلمه وعلى نسيانهم بحفظه حتى هابوا جنابه وكرهوا لقاءه.»[35].

أما أحمد علبي فينوه بمكانة هذا الرجل معرجا على ازدهار الدرس النحوي بأرض شنقيط، يقول: «وقد جاء من شنقيط قلب الصحراء الموريتانية وكان على حظ باهر من الحفظ والفطنة، وقد تخرج من مدرسة هنالك شابهت مدارس البصرة والكوفة وبغداد، فكان درة خرجت من هذه المدرسة العلمية»[36].

هذا في الوقت الذي مال طه حسين إلى أن الشيخ الشنقيطي كان ذا تأثير كبير إذ ترعرع عميد الأدب على ذكر الرجل وأخباره، وامتلأت الأوساط الثقافية المصرية يومئذ بالحديث عنه وعن مكانته العلمية وحدته المتميزة، يقول في كتابه الأيام: «ولم يكد الصبي يبلغ القاهرة ويستقر فيها حتى سمع الأدب والأدباء وسمع حديث الطلاب الكبار حين كانوا يذكرون الشيخ الشنقيطي رحمه الله وحماية الأستاذ الإمام له وبره، به وقد وقع هذا الأجنبي في نفس الصبي موقعا غريبا وزاد غرابته ما كان الصبي يسمعه من أعاجيب الشيخ الشاذة وآرائه التي كانت تضحك وتغضب، وكان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريبا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سندا ومتنا عن ظهر قلب وكانوا يتحدثون عن حدته وشدته وسرعته إلى الغضب»[37].

2- محمد الأمين الجكني الشنقيطي (1395هـ)

نشير هنا إلى أن الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي من الذين جمعوا بين التأثير في الساحتين العربية والإفريقية؛ ففي رحلته إلى بيت الله الحرام تلبث بمختلف الحواضر الإفريقية ناشرا للعلم والإيمان، متصدرا للتوجيه والفتوى: فقد أصدر بساحة

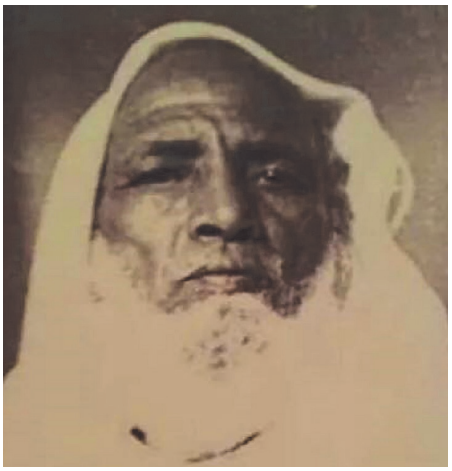

الأراضي المالية فتوى بجواز تزويج الولي الأبعد للصغيرة الشريفة ذات الأب الأبعد الغائب، كما وضح ناسخ آية الوصية والأقربين وفي اتشاد أقبل عليه الطلبة فأخذوا عنه علم المنطق فكان أحدهم يكتب ما يملي عليه من شرحه لسلم الأخضري ليلا ونهارا خوفا من معاجلة السفر قبل التمام، ولم ينزل هذا الشيخ منزلا أفريقيا إلا ولقي معه بعضا من بني وطنه يدعون إلى ربهم ويبتغون من فضل الله مما يدل على حضور الشناقطة المكثف بالمناطق الإفريقية.

وفي دولة السودان نجد الطلبة يتسابقون إلى مجلسه وقد درَّس في معهد أم درمان مجيبا عن أسئلة الطلبة واستشكالات الأساتذة، متناولا أصعب قضايا المنطق مفسرا بعض آيات القرآن مفصلا القول في قصة الغرانيق. وفي هذا المعهد أيضا تعرض لشرح العديد من أبيات ألفية أبن مالك معززا رأيه بالشواهد النحوية. وتمتد مذاكرته مع الأساتذة والطلاب لتشمل موضوعات من عمق الأصول إذ تناول تحقيق المناط والسبر والتقسيم والمصالح المرسلة دون أن ينسى الموضوعات المتعلقة بمادة البلاغة خاصة ما يرتبط بالمجاز وأنواعه والاستعارة وأقسامها.

وقد أطلع طلاب المعهد على نماذج من شعره وذلك بعد أن ألحوا عليه وأبدوا الرغبة والاستعداد لتحصيلها.

أما في بلاد الحجاز فقد تنوع نشاط

32. أحمدو بن احبيب: كتاب الأعداد، ص: 20.
33. المرجع السابق والصفحة.
34. الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركية ، مصر 1919م، 141/2 وما بعدها
35. مقدمة أسرار البلاغة ص 8
36. الحماسة مرجع سابق ص 104 - 105
37. المرجع السابق ص 106

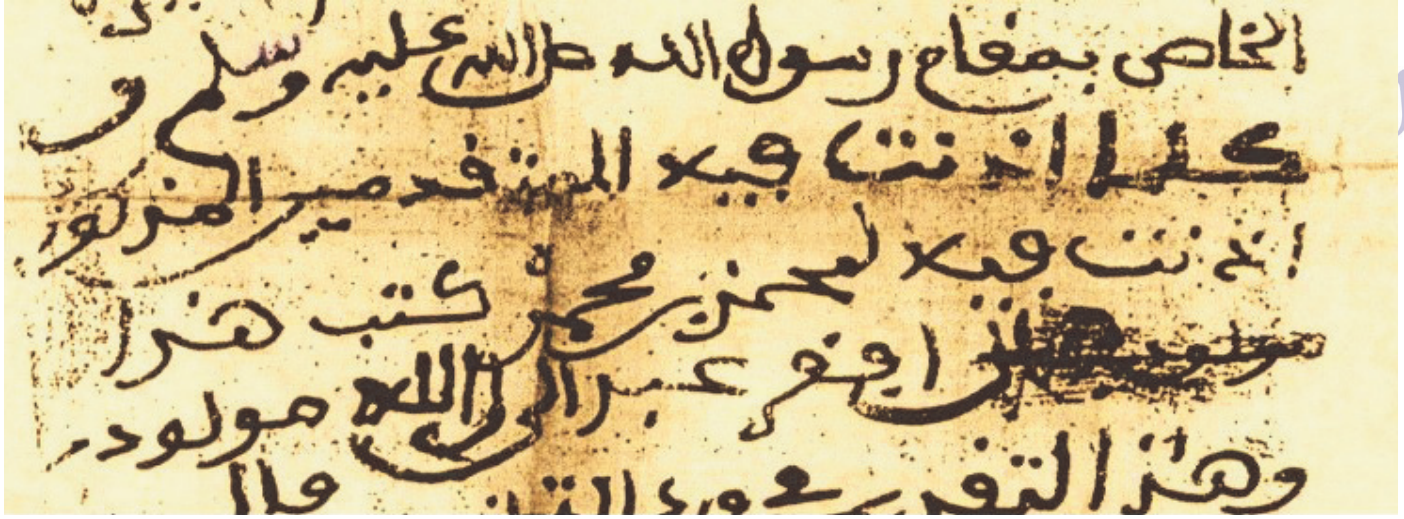

الرجل المعرفي إذ جلس بالحرمين الشريفين للتدريس والمحاضرة والتأليف، فلبث هنالك عدة سنين، يكون الرجال ويربي الأجيال، فنال بذلك الحظوة والتقدير عند أولي الأمر. وإلى جانب ذلك كان له دور فاعل في تدعيم أسس الجامعة الإسلامية. وقد أثنى عليه العلماء السعوديون، فقد خاطبه الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ قائلا: «جازى الله عنا الشيخ محمد الأمين خيرا، فالجاهل عرف العقيدة، والعالم عرف الطريقة والأسلوب».

ولا ننسى أن أخلاق الشيخ كانت كعلمه فهي مثال يحتذى وأنموذج يقلد، وقد كان العلماء والأمراء يجلون قدره وكان عضوا في هيئة كبار العلماء، قد ترأس إحدى دوراتها، وبذلك مثل حلقة مهمة من حلقات التواصل الثقافي بين شبه الجزيرة العربية وبين بلاد شنقيط.

3- أحمد بن الأمين العلوي الشنقيطي (1331هـ)

لقد كان لهذا الرجل تأثير معرفي في البلاد المصرية فقد أقام بها فترة غير يسيرة، نشر خلالها علوما كثيرة وكان على صلة وثيقة بالعلماء هنالك، فنقح بعض النصوص، وشرح عددا من القصائد، فتبوأ بين المصريين مكانة عالية جعلتهم يثنون عليه معترفين بفضله، فقد وصفه المصري فؤاد سيد قائلا: «إنه على فهم تام ومعرفة كبيرة بالعلوم الأصولية والفقهية، كما كان له دراية بالتعاليم الصوفية؛ هذا فضلا عن علو كعبه في علوم العربية وآدابها»[38]، وأكثر من ذلك فإن هذا المصري رفع للعلوي ذكره بين الناس؛ إذ قدم له ترجمة هامة في فاتحة كتابه «الوسيط» أكد ضمنها أنه استقر بالقاهرة متصلا بالأوساط العلمية، مكبا على الدرس والتصنيف، منكبا صراط اللهو والمجون، مقيما صلات وثيقة بمعاصريه من العلماء المصريين، فقد توطدت صلته بالسيد محمد توفيق البكري مما جعل الشنقيطي يشرح كتاب نظيره المصري «صهاريج اللؤلؤ» وذلك بالتعاون مع لطفي المنفلوطي[39].

كما نوه بجهوده الشيخ سليم أبو الأقيال اليعقوبي الذي قرظ كتابه «الدرر في منع عمر» معجبا بشكله ومضمونه، معربا عن روعة أسلوبه وحزه في المفصل، يقول: «إن من الفرص التي ينتهز العاقل في حياته مطالعة كتاب يأخذ به إلى سماء الارتقاء فيجلسه على منصة أهل الفضل وأريكة الفضلاء، ولهذا أراني ولوعا بمطالعة كتاب صديقي الأديب والجهبذ الأريب نبراس الفضلاء الشيخ أحمد أفندي الشنقيطي المسمى بـ»الدرر في منع عمر»[40]

كتاب صاغه لسن
يحاكي نظمه الدرر
فلا زيد يضارعه
ولا عمرو ولا عمر

4- محمد أمين الحسني الشنقيطي (ت 1351هـ)

من المعلوم أن هذا الحسني كان له تأثير بالغ في مناطق البعد، فقد درّس ببلاد الحجاز والكويت والعراق، ففي بلاد الحجاز درس مجموعة من طلبة قازان، كانوا يقرؤون مقامات الحريري على شيخه أبي شعيب الدكالي، فلما أن أراد هذا الأخير السفر إلى تركيا خلفه

الحسني في حلقته التدريسية فتابع جهود شيخه. ودرس الطلاب بعضا من ألفية العراقي.

أما في الكويت فإنه نال التقدير الكامل ولهجت الألسنة بالثناء عليه، فقد خاطبه عبد اللطيف بن إبراهيم آل ناصف قائلا[41]:

اليوم هللت الكويت وكبرت
لما أتاها العالم النحرير
واستبشرت فرحا بنابغة الهدى
حتى حسبنا أنها ستمور
إيه بني قومي وسادة معشري
أوموا إليه كلكم وأشيروا
خلوا النواظر شاخصات نحوه
ودعوا القلوب تسير حيث يسير
أمعطر الإسلام من نفحاته
ومعيد روض الدين وهو نضير
بشرى لهذا الثغر لما زرته
فلكم تمنت أن تراك ثغور

أما في العراق فقد تلبث بمدينة الزبير وأقام بها مجمعا تدريسيا وقد تزوج هنالك وأخذ نجمه في التألق وتناقل

38. أحمد حسن الزيات: مجلة الأزهر: سبتمبر -1961 22/291.
39. أحمد علي: طه حسين رجل وفكر وعصر- دار الآداب- بيروت-1985- الطبعة الأولى ص: 144.
40. طه حسين: المجموعة الكاملة: دار الكتاب اللبناني-1982- 1/343.
41. مقدمة الوسيط، بقلم محمد المختار ولد أباه، ص: 6

الناس أخباره بعد ما أقام «مدرسة النجاة الأهلية»[42] التي تعد من أكبر إنجازاته، فلقد كان لها شأن عظيم لا في تاريخ المدينة فحسب بل في تاريخ المنطقة عموما، إذ تعد من أنجح المؤسسات العلمية التي خرَّجت آلافا من الطلاب على مدى عقود من الزمن، وكانت مساهمتها كبيرة في نهضة العراق الثقافية والاجتماعية، بل كان لها تأثير يذكر على البلْدان المجاورة كالسعودية والكويت ومختلف أقطار الخليج العربي الأخرى[43].

وظل الشيخ محمد الامين طيلة مقامه بالعراق على صلة وثيقة بالأوساط الثقافية فقد كان يتردد على حلقته عدد من العلماء العراقيين، لعل من أبرزهم الشيخ محمود شكري الألوسي[44].

5- محمد حبيب الله بن ما يابا الجكني الشنقيطي (ت 1364هـ)

وهو من الذين كان لهم تأثير متميز في المشرق العربي حيث ارتحل إلى المغرب أيام الاحتلال الفرنسي فتوطدت صلته بالسلطان مولاي عبد الحفيظ،

الذي أعجب بمعارفه فاختصه لنفسه عاملا على استمالته واستبقائه ببلاطه، فلبث معه فترة توجت برحلة مشتركة إلى البقاع الطاهرة، جمعت بين السلطان المغربي والعالم الشنقيطي، وقد بقي هذا الجكني بالحرم المدني ينشر المعارف والعلوم طيلة سبع سنوات، مؤلفا حينا ومحاورا العلماء أحيانا أخرى، ولما ألف كتابه «إضاءة الحالك من دليل السالك قرظه خمسة من أئمة الفتوى والتدريس في الحرم المكي وحده، ومن أمثلة ذلك ما كتب السيد عبد الله الزواويبي منوها بذلك الكتاب ومعليا قدره يقول: «الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه، وجنده وحزبه وبعد: فقد اطلع الآمر برقم هذه الأحرف على نظم العلامة الفضيل اللوذعي المثيل الشيخ محمد حبيب الله بن ما يابا الشنقيطي المسمى بالدليل السالك إلى موطإ الإمام مالك، المخصص لإثبات صحة أحاديث موطإ الإمام الأعظم عالم المدينة فوجدته نظما لطيفا منسجما محتويا على أدلة قوية، كافية في إثبات مقصده وهو أن الموطأ غير نازل عن مرتبة الصحيحين بل هو مماثل لهما، بل هو مقدم عليهما بالسبق ، كيف لا ومؤلفه إمام السنة وشيخ الأئمة ، ولا شك أن هذه الرسالة المنظومة الجميلة حرية بأن يعتنى بها، ويظهر ذكرها، بطبعها حتى يعم نفعها». وقد كان له في الديار المصرية تأثير عظيم كذلك.

الحضور الشنقيطي في العمق الإفريقي

ويمكن أن نكتفي خلاله بالوقوف مع تأثيرات خمسة من علماء القوم نعرض لهم تباعا في ما يأتي:

1- الشيخ سيدي المختار الكنتي (ت 1226هـ)

ونذكر في هذا المقام أن الشيخ سيدي المختار الكنتي يعتبر أبرز مشايخ التصوف القادري، وقد كان له تأثير كبير في المناطق الإفريقية، فقد وطد هذا الإمام دعائم الطريقة القادرية بمختلف مناطق هذه القارة ومهد السبيل لانتشارها في مختلف بلدان السودان الغربي، والأوسط، من برنوا إلى أهير، إلى البلدان الخاضعة لسلطة الدامل في السينغال، وهذه أوسع منطقة تخضع لتأثير داعية إفريقي واحد. وكانت القادرية بزعامة الشيخ الكنتي أهم عوامل التجديد الإسلامي في فوتاتور وبلاد الهوصا. حيث ساهمت في صياغة المصلحين الإسلاميين هنالك، مثل الحاج عثمان الفوتي مؤسس الإمارات الإسلامية في شمال نيجيريا، والشيخ أحمد لبو، مؤسس دولة الدنيا في منطقة ماسينا.

2- سيدي مولود فال اليعقوبي (ت 1267هـ)

وممن كان لهم تأثير يذكر في أعماق إفريقيا سيدي مولود فال اليعقوبي الذي انطلق من بلاده في رحلة إلى الحجاز فمر بالبلاد المالية ليصل إلى النيجر واتشاد والسودان وقد كان حريصا في ما يبدو على ترسيخ الوعي الصوفي في الأذهان؛ فقلما مر بقرية إلا وترك فيها بعضا من مريدي الطريقة التيجانية، فاتسعت دائرة هذا التوجه الصوفي على يديه، وامتدت لتشمل مناطق غرب إفريقيا ويكفيه فضلا أن الحاج عمر الفوتي لم ينتظم في سلك التجانية إلا عبر سلسلته، فقد صرح الفوتي بذلك في كتابه «رماح حزب الرحيم»، حيث يقول: « وأما سندنا إلى الشيخ رضي الله عنه في هذه الطريقة وأذكارها اللازمة فقد نظمني في سلكها الشاب العاقل سيدي عبد الكريم بن أحمد الناقل وهو لقنه الشيخ الجليل الفاضل النبيل، سيدي مولود فال ذو الخلق الجميل».

3- محمد يحيى بن أبوه اليعقوبي (ت 1339هـ)

وهو من الذين جابوا القارة الإفريقية فقد مر بمعظم بلدانها أثناء رحلته الحجازية التي دعته إلى أن يجتمع بعدد من العلماء، كما دعته إلى التدريس بمعظم الحواضر الإفريقية التي مر بها. ناثرا الدر النفيس على الطلبة فقد أقام بمنطقة أزواد، وتوقف بتمبكتو توقفا معرفيا قدم خلاله دروسا في الحديث. ورحلة هذا الرجل تنطق علينا بتأثيره العلمي وحضوره الفاعل بالقارة الإفريقية، وقد مارس التدريس في أهم الحواضر الإفريقية مثل «تمبكتو،

42. الوسيط، مرجع سابق، ص: 7.
43. أدب الرحلة في بلاد شنقيط مرجع سابق ص 165.
44. المرجع السابق ص 170.

و»فور لامن» و»كنو»، وقد استقبله أهل البلدان المزورة بشيء من الحفاوة غير قليل وتسابقوا يمدونه بنادر الكتاب وموفور المال، ومن الأمثلة على ذلك ما لقيه في مدينة «كنو» التي أشار إلى نشاطها العلمي وحركتها الثقافية فقد اتصل بخطيب مسجدها الذي أتحفه بكتب ثمينة وقدم إليه جملة من الهدايا ليحصل في مقابلها على بعض العلم، وقد اطلع محمد يحيى على مكتبة هذا الخطيب فأعجب بمضمونها إذ تكثر بها المصادر وتتنوع المراجع حيث تضم المطبوعات والمخطوطات، وقد انتقى منها أحد شروح مسلم ليظل يومين عاكفا على مطالعته، وفي لحظة الوداع أمده الخطيب برسالة إلى أحد الأعيان الذين سيمر بهم في طريقه إلى الحج، وكان مضمون هذه الرسالة التأكيد على تميز الشيخ والأمر بمساعدته والسعي في مصالحه إلى أن يبلغ قصده، يقول: «هو أعجوبة الزمان المشار إليه بالبنان.. والحاصل نحب من فضلك أن تأخذ له التسريح من عند الإنجليز مع أمن الطريق إلى أن يصل إلى الحرمين سالما غانما»[45].

وكان الرجل المرسل إليه من أعيان مدينة «يروى»، ولما نزل محمد يحيى بها ناوله الصحيفة فبعث معه رجلا إلى مركز التفتيش فلم يتعرض الإنجليز له بسوء، يقول: «فأريناهم - يعني الإنجليز - الكتاب فما كتبوا لنا شيئا وقالوا اذهبوا»[46]، مما يدل على أن تلك العشرة المعرفية أثمرت كثيرا وأعانت الرجل على اجتياز بعض مراحل السفر.

ونختم هذا المحور بالإشارة إلى أن عبد الودود بن سيدي عبد الله الأبييري (ت 1356هـ) ، وأحمد بن بياه التندغي (ت1390هـ) من الذين كان لهم تأثير يذكر في المناطق الإفريقية، فقد سجلا في رحلتيهما إلى البلاد المقدسة بعض الإشارات التي يفهم منها أنهما خلفا بعض التأثير المعرفي في تلك المناطق.

خاتمة:

وصفوة القول أن العلماء الشناقطة أثروا بفعالية في مناطق الجوار والاقتراب كما أبقوا بصمات راسخة في مناطق البعد و الاغتراب فكانوا عنوانا لنشر المعارف

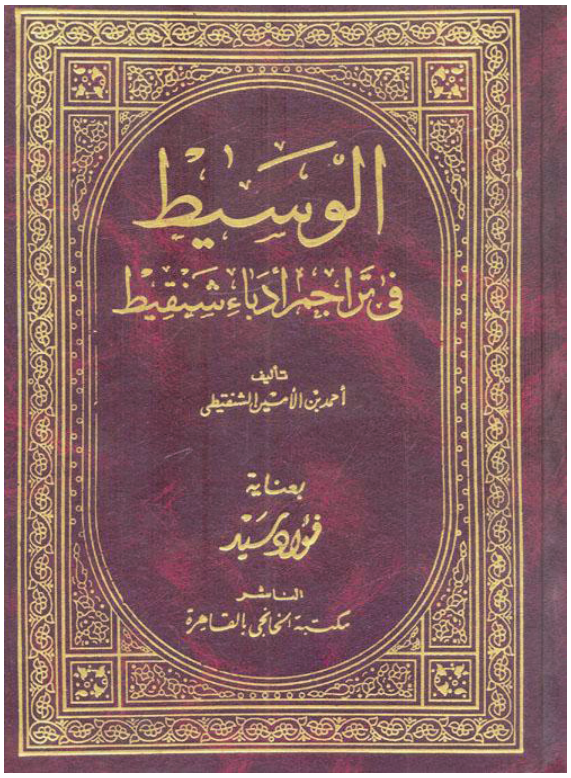

وأنموذجا لمعاشرة الأمراء والملوك وآية لتجسيد عظيم القيم ورفيع السلوك.

وقد ضم هذا الجهد وجوها علمية بارزة من أئمة هذه الأرض أثروا في المنطقتين العربية والافريقية، ففيه عشرون صابرون من سفراء القوم عملوا على أن يقنعوا بالسبحة والقدوة آلافا من الذين كفروا، كما سعوا جهدهم ليذكروا بالحكمة والموعظة الحسنة أضعاف ذلك من الذين آمنوا، فعضوا على السنة بالنواجذ وحضوا على طعام المسكين ليمكنوا بذلك للإسلام في مختلف المناطق أحسن التمكين، فمَهَدوا لأبنائهم بذلك أعظم المهاد، وجاهدوا في الله حق الجهاد.

وفي الأخير نوصي بأمور من بينها:

- التذكير بأهمية الدبلوماسية العلمية فهي لا تقل شأنا عن الدبلوماسية السياسية. لذلك يلزم الاعتناء بالبعثات العلمية والجاليات الأكاديمية والإرساليات الطلابية.
- إحياء جهود العلماء الذين أبقوا لهذه البلاد الشنقيطية في المهاجر العربية والإفريقية سمعة حسنة، فرفعوا لها ذكرها، ونشروا علمها وفكرها.
- استشعار مكانة السفارة العلمية لدى كل من يمثل هذه البلاد الشنقيطية في ندوة أو مؤتمر دولي؛ فعليه أن يستحضر منزلة بلاده العلمية ومكانتها المتميزة وليعلم أنه تحت المجهر، فيلزمه أن يحرص على الفصاحة والبيان ويحذر كل الحذر من التلعثم والتعثر والعزوف عن الإبانة والإعراب.
- التنبيه إلى القيمة الكبرى للسفارات العلمية إذ تعود على البلاد بالنفع العميم، فتكتسب منها سمعة وعملة.
- التنويه بجهود الدولة اليوم في الاعتناء بالمهاجرين والمغتربين حيث أصبح المركب اللفظي «الموريتانيون في الخارج» عنصرا حاضرا في اسم وزارة الخارجية وبنيتها الإدارية وخططها الاستراتيجية.

45. وقد تأسست هذه المدرسة في 20 ذي القعدة سنة 1340 هـ 1921م، وكان على رأسها الشيخ محمد الامين بن فال الخير الشنقيطي. وخرجت هذه المدرسة آلافا من الطلاب.
46. المرجع السابق ص 107